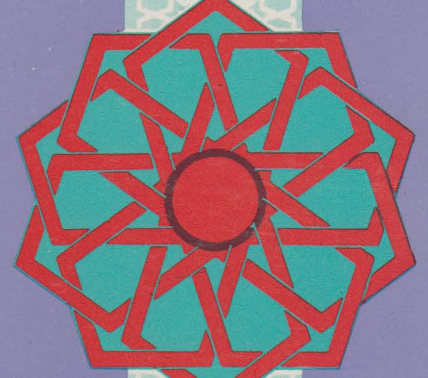
لقاء مع الأبرار

«٨»

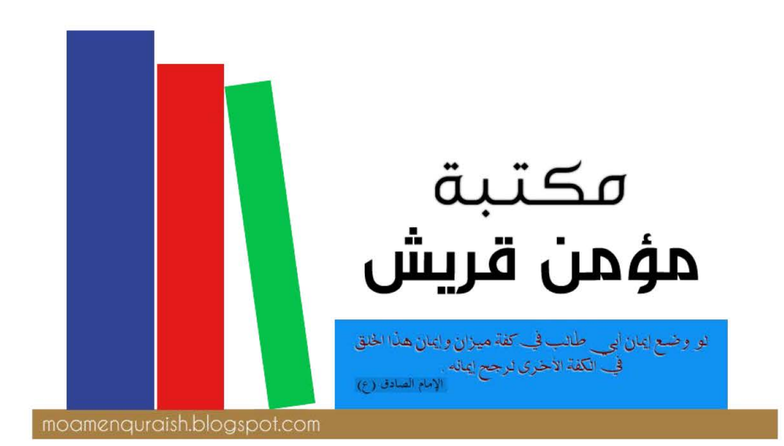


الآخوند الخراساني

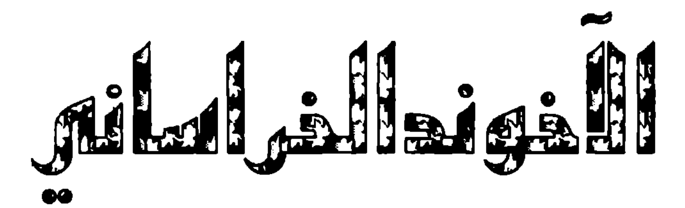
شمس في منتصف الليل

تأليف محمّد رضا السمّاك

ترجمة كمال السيّد


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

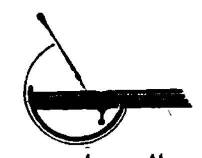
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شمس في منتصف الليل

تأليف محمّد رضا السمّاك

ترجمة كمال السيّد



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء ـ مؤسسة أنصاريان

ص . ب ١٨٧ ـ هاتف ٢١٧٤٤

اسم الكتاب :	الآخوند الخراساني شمس في منتصف الليل
المؤلف :	محمّد رضا السمّاك
المترجم :	كمال السيّد
صفّ واخراج :	محمّد افتخاري ـ تلفون ٦١٩٤٠٣
المطبعة :	صدر
الطبعة الاولى :	١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م
الناشر :	مؤسسة أنصاريان
عدد المطبوع :	٣٠٠٠

المحتويات

الفصل الأوّل (رفيق النجوم)

الفصل الثاني (الحرية)

كلمة الناشر

عديدة هى الطلبات التي تلقّتها مؤسسة أنصاريان سواء عبر الهـاتف أم خلال رسائل القرّاء الكرام، وكلّها كانت تدور حول كتب تتحدث عن حياة العلماء من الذين كان لهم دور مشرق في عالم الفكر و دنـيا العـلوم، وقـد عكفت المـؤسسة عـلىٰ دراسـة المـوضوع بـاهتمام، اسـتجابةً للـرغبات المخلصة المتعطشة للثقافة الإسلامية ورموزها.

واذ تقدم «أنصاريان» سلسلة (لقاء مع الأبـرار) فـإنّها تـتمنىٰ أن تـلقىٰ الرضا والقبول من لدن جميع القرّاء الكرام، والله الموفّق.

مؤسسة أنصاريان

تمهيد

يقوم الهجوم الثقافي علىٰ دعامتين؛ الأولى: تـحقير الثـقافة الأصـلية، والثانية: التهويل للثقافة البديلة والغريبة في نفس الوقت. ومن خلال هـذا الاستلاب الثقافي واحتقار الثقافة العريقة يشعر الشعب بحالة من الصـغار تجاه الآخرين، غافلا عن ثقافته وما تحويه مـن الكـنوز الثـرّة، مسـتجدياً الغرباء، عارضاً حضارته وتمدّنه بثمن بخس.

ولقد عمل النظام البهلوي البائد علىٰ تكريس هذه السياسة في التعامل مع الغرب كالٰه للحضارة والمدنية والفن بل وحتىٰ الأخلاق والدين، وطرح الشرق باعتباره مثالاً للوحشية، والتخلف، وفي أحسن الأحـوال: العـالم الثالث عالم الدول النامية؛ ولقد نجحت تلك السياسات الشيطانية إلىٰ حدّما وأصبح الغرب فى نظر الكثيرين ـ خاصة الشباب ـ يمثّل العالم الحرّ المنافح عن حقوق الإنسان والمدافع عن الديمقراطية والحرّية.

ولكن وكما يقال فإنّ الشمس لا تبقىٰ خلف الغـيوم إلىٰ الأبـد، وبـدت الحقائق واضحة وبدأ عهد الصحوة الإسلامية.. العـهد الذي يـتّسم بـعودة

الجيل الحاضر إلىٰ فطرته وقرآنه وعقيدته ورموزه.

وبالرغم من هذه الاشراقة التي تبشر بالخير الوفير فإنّ حالة الاستلاب الفكري وفي كثير من المجالات الحساسة ماتزال تعاني ذيـول التأثـيرات الغربية.

فما تزال شهادات الغرب تخطف أبصارنا، ومايزال الدواء الذي لا يحمل اسماً غربياً طناناً، عديم التأثير والفائدة، ومايزال الكثير من مظاهر الثـقافة الغربية متغلغلاً بل ومتجذّراً في تربتنا، ومايزال الغرب يختار لنا الزي الذى نلبسه، ويعيّن نوع المداليات التي تمنح كجوائز للفائزين، وننتظر منه حتىٰ الجوائز الأدبية التي يسيل لها لعاب الكثيرين. ولكن هل من الصحيح أن نعدّ الغرب مثالاً؟ الغرب الذي ظهر علىٰ حقيقته بشعاراته الجوفاء.. وبـدعاواه الفارغة في الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لماذا هذا الشعور بالنقص تجاه جلاّدي القرن الخامس عشر الهجري؟!

فالغرب الذي يمنح جوائزه «الأدبية» إلىٰ عديمي «الأدب» مـن أمـثال سلمان رشدي، في الوقت الذي يصدّر أو امره بحرمان الطلبة المسلمين من الإشتراك فى أولمبياد الفيزياء، مازلنا ننظر إليه كمثال، بالرغم مـن تـمييزه العنصري المقرف.

ان علىٰ العالم الاسلامي أن يسعىٰ بجدّ إلىٰ تشكيل «نظام دولي إسلامي» وأن يقطع كل آماله من شعارات الغرب في الديمقراطية والحـرّية والدفـاع عن حقوق الإنسان.

وهل هناك أمل ونحن نشهد ماجرىٰ ويجري في الأرض الإسلامية في

«البوسنة والهرسك» و «الجزائر» و «فلسطين»؟ وليعلم كل من يهمه أمر المسلمين أنه لا ملجأ إلاّ في العودة إلىٰ أحضان القرآن وظلاله الوارفة.

و «لقاء مع الأبرار» خطوة في الطريق ـ طريق العودة الىٰ الذات من خلال الإشارة إلىٰ نجوم الفكر الإسلامي.. اولئك العمالقة الكبار الذين تضيع فى عوالمهم وآفاقهم الرحبة زعماء العقائد الأخرىٰ ومفكروها.

ان أشدّ مايرهب الغرب ويرعبه، هو عودة الأمّة الىٰ هوّيتها.. إلىٰ رموزها.. إلى اولئك الذين مهّدوا من خلال جهودهم المتظافرة طريق الإسلام اللاحب.

ولقد أخذت «لقاء مع الأبرار» عهداً علىٰ استكشاف معالم سبعين كوكباً مضيئاً في سماء الفكر الإسلامي، وتقديمهم معالم منيرة في طريق البناء.. بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

قم ـ مؤسسة باقر العلوم للبحوث

مقدمة المترجم

شهدت ايران في مطلع القرن العشرين تضخماً سرطانياً للنفوذ الاجنبي لم يسبق له مثيل، فلقد توسع الروس في الشمال الايراني بعد أن انتزعوا بالقوّة والقهر مناطق اسلامية واسعة كانت جزءاً من الخارطة الايرانية. وفي الجنوب كانت بريطانيا صاحبة الأمر والنهي علىٰ طول السواحل، وفي الموانئ والمرافئ الحيوية، وأصبحت السفارة الروسية والبريطانية مصنعاً للقرارات الكبرى في توجيه البلاد.

ولقد جاءت حركة المشروطة ـ الثورة الدستورية ـ كردّ فعل شعبي على استبداد «الشاه» الذي أضحىٰ ألعوبة بأيدي الأجانب. وسجّل علماءُ الدين تضامنَهم الكامل مع «المشروطة» ووقوفهم الىٰ جانب الشعب.

وبرز «الآخوند الخراساني» كقائد شعبي كبير لأهمّ حركة سياسية في تاريخ ايران الحديث، ووقف الشاه ودعاة الاستبداد عاجزين تماماً أمام «الثورة» التي أطاحت ـ والىٰ الأبد ـ بالعهد القاجاري.

ويمكن القول أن حركة «المشروطة» من الفترات العاصفة، للملابسات التي رافقت الحوادث منذ انطلاق شرارتها وحتىٰ ولادة أول برلمان ايراني وبداية الحياة النيابية، وما نجم عن تلك الحركة من كوارث كإعدام الشيخ فضل اللّٰه النوري.

وينبغي الاعتراف بأن السفارة البريطانية قد نجحت تماماً في اختراق

الثورة الدستورية، وإقصاء القيادة الدينية عنها لتكون أداة طيعة بأيدي العلمانيين من عملاء الفكر الغربي.

لقد أسفرت حركة المشروطة عن نتائج مرّة؛ في طليعتها تصفية قادتها الكبار مثل آية اللّٰه البهبهاني الذي اغتيل بإطلاق الرصاص عليه، ونفي الزنجاني الىٰ العراق، فيما فرضت الاقامة الجبرية علىٰ الطباطبائي.

يمكن ضمّ استشهاد «ميرزا كوچك خان» و «حسن مدرّس» ـ فيما بعد ـ الىٰ نتائج «الانتصار الانكليزي» في احتواء «المشروطة».

ومن يقرأ تاريخ «الحركة الدستورية» لابدّ وأن يدرك عمق المرارة التي كان يشعر بها الآخوند الخراساني وهو يراقب ـ عن كثب ـ حوادث ما بعد انتصارها. ولعلّ الخراساني كان يستهدف من وراء عزمه السفر الىٰ ايران تصحيحَ الاوضاع الشاذة وسيطرة الاتجاه العلماني علىٰ مجلس الشورىٰ الوطني، وهو ما يعزّز نظرية اغتياله مسموماً عشيّةَ توجّهه الىٰ جبهات القتال في ايران وطرد قوات الاحتلال[1].

ورغم كل ما حصل فإن استشهاد الشيخ فضل اللّٰه النوري علىٰ ذلك النحو المؤسف يرسم علامة استفهام كبرىٰ تشكّك بوطنية دعاة «المشروطة» من العلمانيين.

كمال السيد

---

(١) حصلت الوفاة في ظروف غامضة، وبعد أيام من مغادرة «المسز بيل» لمدينة النجف، وتحوم الشبهات حول الخادم الخاص للخراساني والذي اصبح مع أولاده تحت رعاية الاحتلال الانكليزي في العراق.

الفصل الأوّل

رفيق النجوم

خراسان

خراسان بلاد الشرق، رقعة جغرافية مترامية في آسيا، كانت تمتدّ بين نهر «آمو دريا» شمالاً وشرقاً وجبال «الهندوكوش»، وإلىٰ بلاد ماوراء النهر جنوباً.

بلاد عريقة، ومدن كانت تصنع الاحداث، وتاريخ عميق الغور.

طوس، نيسابور، هرات، مرو، سرخس، بلخ... ومدن أخرىٰ كانت تنتمي الىٰ خراسان.

واليوم تبدو خراسان في الخارطة الاقليم الشمالي الشرقي من ايران وتضمّ طوس (مشهد) ونيسابور، اما هرات وبلخ فتظهر في افغانستان، في حين تضيء مرو في بلاد تركمنستان.

سلّم فتح عليشاه القاجاري ادارة هرات الىٰ افغانستان، في عهد «الغوريين»[1] وكانت تضم اكثر من ٤٠٠,٠٠٠ نسمة.

كان لهرات مع طوس (مشهد) علاقات وطيدة وعريقه، وكان مرقد الامام

---

(١) آخر مملكة في افغانستان حكمت الهند، انطلقت من مقاطعة غور الجبلية، بين هرات وغزنة ـ المترجم.

الرضاعليه السلام يستقبل آلاف الزائرين من مدينة هرات يحدوهم شوقهم لزيارة ثامن أئمة اهل البيتعليهم السلام.

التجارة وخيوط الحرير عزّزت من العلاقات بين هرات ومشهد.

وكان ملا حسين الهراتي، عالم من علماء الدين، وتاجر من تجار الحرير، يتنقّل بين هرات ومشهد وكاشان، مكث مدّة في كاشان، وكان ذلك في مطلع شبابه، ثم عاد الىٰ مسقط رأسه في هرات، فتزوّج هناك، وكانت ثمرة زواجه ثلاثة أولاد: نصر اللّه، محمد رضا، غلام رضا.

مدينة الملائكة

بين فترة وأخرىٰ يشتدّ الحنين بملاّ حسين فيشدّ رحاله الىٰ مشهد، وربّما اصطحب أولاده معه الىٰ تلك البقعة المقدسة من الأرض.. بقعة تقصدها الملائكة، تروح بأجنحتها فوق قبة ذهبية تعانق السماء

كانت بقعة عادية من الأرض، قبل أن يصلها الامام الرضا[1] علىٰ قدر.

---

(١) عن الحسن بن الجهم، قال: حضرت مجلس المأمون يوماً وعنده عليّ بن موسىٰ الرضاعليه السلام ، وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام، فلما نهض الرضاعليه السلام تبعتُه فانصرف الىٰ منزله. فدخلت عليه وقلت له: يابن رسول اللّه، الحمد للّـه الذي وهب لك من جميل أمير المؤمنين ما حمله علىٰ ما أرىٰ من إكرامه لك وقبوله لقولك فقالعليه السلام: يابن الجهم لايغرنّك ما ألفيته عليه من إكرامي والاستماع مني، فإنه سيقتلني بالسمّ وهو ظالم لي، عهد معهود إليّ من آبائي عن رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم ، فاكتم هذا عليّ مادمت حيّاً.

وليد مشهد

في عام ١٢٥٥ هـ. كان ملا حسين يترقّب إطلالة الوليد الرابع. وسرعان ماجاءته البشرىٰ وهو يتمتم بالدعاء الىٰ اللّه أن يجعل وليده مباركاً. فانهمرت الدموع من عينيه فرَحاً وأملاً بما عند اللّه، ودعاه من تلك اللحظة «محمد كاظم».

ونشأ الصبيّ في أسرة متديّنة، وفي فضاء روحانيّ مفعم بآيات اللّه وتمتمات الدعاء، وسيرة أهل البيت عليهم السلام.

. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، انتظم في سلك الحوزة العلمية لمدينة مشهد.

وتعدّ حوزة مشهد واحدة من أعرق الحوزات العلمية في ايران؛ يعود تاريخ بعض مدارسها الىٰ اكثر من ثلاثة قرون. فمدينة مشهد تزخر بالعلماء والعباقرة ممن تركوا آثاراً خالدة عبر الزمن.

فإلىٰ هذه المدينة يُنسب الشيخ الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) مؤسس الحوزة العلمية في مدينة النجف الاشرف، واليها ينتسب ايضاً نصير الدين الطوسي الفلكي المشهور مؤسس مرصد (مراغة) والمتوفى سنة ٦٧٢ هـ. وفي ميدان الشعر والأدب يلمع اسم الفردوسي كأبرز شاعر ايراني (توفي سنة ٤١٦ هـ) اضافة الىٰ عشرات العلماء والأدباء الذين أنجبتهم مدينة مشهد وقدّمتهم للإسهام في بناء الحضارة الاسلامية والعالمية.

* * *

مرت ستة أعوام والشاب ما يزال ينهل من فيض العلوم الدينية، فترعرعت شخصيته العلمية والاخلاقية.

درس آداب العربية، المنطق، الفقه، والاصول علىٰ ايدي اساتذة بارعين، ولم ينحصر اهتمامه بالدراسة في أوقاتها المخصَّصة، بل كان يوصل الليل بالنهار، والنهار بالليل في البحث والمطالعة. وربّما توقّف عند مسألة ما فيسجل اشكاله عليها، ثم يورد اشكالاته علىٰ استاذه، ويصغي الىٰ الجواب بأذن واعية وقلب متيقظ.

هنّ لباس لكم

ويبلغ محمد كاظم من العمر ثمانية عشر ربيعاً، فتهفو نفسه الىٰ شريك حياة يرافقه في رحلة العمر.

وفي ظلال الزواج يشعر المرء بالسكينة والسلام يملآن قلبه وروحه. فتنتهي مشاعر القلق، وتتدفّق عشرات الفضائل الانسانية. وما اجمل الصورة التي يرسمها القرآن عن العلاقة الزوجية. قال تعالىٰ:

«هُنّ لباس لكم وانتم لباس لهن»

وقال سبحانه:

«ومن آياته أن جعل لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة».

ويصبح محمد كاظم أباً بعد أن أطلّ وليده «مهدي» علىٰ الدنيا. ويتدفق ينبوع الأبوة في اعماقه وهو يصغي الىٰ كركرة ابنه الحبيب.

سرّ العباقرة

الهجرة هاجس العباقرة يشدّهم حلم الآفاق البعيدة والرحيل، وكانت مدينة النجف حلماً يتألق من بعيد لعشّاق العلم وطلاّب المعرفة، وكانت روح محمد كاظم تتوثّب للرحيل وتنتظر الفرصة المؤاتية.

والسفر في تلك الايام مشاقّ، وطريقه مليء بالأشواك، غير أنّ طالب العلم لم يكن يفكر بشيء سوىٰ «النجف» كعبة العلماء ومركز الاشعاع العلمي والروحي. وكيف لاتكون كذلك وهي تضمّ في ترابها بطل الاسلام الخالد عليّ بن ابي طالب.. باب مدينة العلم ـ كما قال رسول اللّٰه ﷺ .

ويبثّ زوجته همومه فتوافق علىٰ مضض، بعد أن ترىٰ زوجها لايفكر بشيء سوىٰ العلم والمعرفة، فتودّعه مع أول قافلة تنشد الرحيل الىٰ كربلاء.

وتمضي القافلة تشقّ طريقها في فلوات خراسان، حتىٰ اذا وصلت سبزوار، وتوقّفت للاستراحة ساعات، اذا بمحمد كاظم يغتنم هذه الفرصة لينطلق الىٰ لقاء آية اللّٰه ملا هادي السبزواري ويحضر درسه.

وتتحرك القافلة صوب كربلاء، فيما يبقىٰ محمد كاظم وحيداً قرْب الفيلسوف الكبير ينهل من فيض علمه وعبقريته.

ويستأنف الطالب رحلته، فيصل طهران، ويحطّ رحاله هناك ليبقىٰ مدّة ثلاثة عشر شهراً في حجرة صغيرة من حجرات مدرسة الصدر، ويحضر دروس الملاّ حسين الخوئي والميرزا أبو الحسن.

ومرّة أخرىٰ يشدّ الرحال، ولكن عسر الحال وعدم امتلاكه المال يمنعه من السفر.

فجأة يكتشف زميله في الدرس وشريكه في الحجرة «عبد الرسول المازندراني» فيتصل بادارة المدرسة، فيعرض المدير مبلغاً مودعاً لصلاة الاستئجار[١]، ويستلم محمد كاظم المبلغ مقابل التعهد لأداء الصلاة قضاءً مدّة شهرين.

ويودّع محمد كاظم مدرسته وصديقه، وينطلق صوب العراق.

البحر

مرّ اكثر من عام، قضاه محمد كاظم في الطريق بين مشهد والنجف، واخيراً حطّ رحاله في كربلاء عند مرقد سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام ثم توجه صوب النجف الاشرف لزيارة مرقد الامام علي عليه السلام ، وتداعت امامه صور من الذكريات مع والديه وزوجته وولده الصغير.. ذكريات مشهد بأزقّتها وأسواقها ومدارسها التاريخية العريقة.

وفي النجف ينتظم محمد كاظم في الدراسة، فيحضر دروس اثنين من أبرز الأساتذة، وهما: الميرزا حسين الشيرازي، والشيخ الانصاري.

وفي خضمّ هذا البحر المتلاطم الذي يموج بآلاف الطلاب، غاص محمد كاظم كقطرة تنشد الاعماق حيث اللآلئ والأصداف والجواهر.

وينطلق محمد كاظم في دنياه الجديدة يغترف كل يوم علماً، يصغي بقلبه

---

(١) صلاة تؤدىٰ نيابة عن الموتىٰ قضاءً، ويؤديها الاحياء مقابل مبلغ من المال، يقصدون فيها تقرّب الموتىٰ ـ المترجم.

وأذنيه الىٰ أساتذته ويلتهم بعينيه وعقله كتبَ الفقه والاصول وتراث علماء الشيعة الكبار ممن أثروا بفكرهم الحضارة الانسانية.

لم يكن يعرف الليل من النهار، وربّما جلس يطالع ويبحث ويتأمل حتىٰ تمضي قطع الليل، فلا ينتبه الاّ علىٰ صياح الديكة تبشّر بمطلع الفجر.

كان لايعرف للتعب معنىٰ. إنه الآن في الثالثة والعشرين من عمره، أشبه مايكون بغوّاص يمخر عباب المياه بحثاً عن اللؤلؤ في الأعماق البعيدة.

رفيق النجوم

يروي محمد كاظم بعض ذكرياته في النجف في تلك الفترة:

«كان الفكر غذائي الوحيد، ولم أكن لأقنع أبداً، اما نومي فلم يتعدّ ستة ساعات، وكنت أحيي الليل بالمطالعة، حتى لقد رافقت النجوم، وأصعب شيء علىٰ المرء أن ينام خاوي البطن»[1]

ترىٰ ما الذي يدفع هذا الطالب للبقاء رغم الجوع والغربة والبعد عن الأحبّة والديار؟ أهكذا يفعل العلم بأهله.

وتبقى النجف المدينة الوحيدة التي لا تلهب ساكنيها بسياط الغربة فتلك القبّة الشمّاء مرفأ ترسو لديه السفن المتعبة والزوارق المسافرة.

اجل هناك قلب علي.. قلب التأريخ النابض، والانسان الذي جسّد كل معاني الحياة الخالدة.

---

(١) مرگی در نور (موت في الضوء) ص ٥٥ .

الرسالة

وفي غمرة استغراقه في الدراسة وصلته رسالة من مشهد: «انا للّٰه وانا اليه راجعون». لقد استردّ اللّٰه أمانته، وأخذ وديعته، فقد توفي الصغير، ورحل عن الدنيا.

وانفجر الأب المفجوع بالبكاء. لن يرىٰ ابتسامة وليده بعد اليوم، ولن يسعد بمناغاته وكلماته العذبة، وكل ما بقي لديه ذكرياتٌ تطوف كالحلم. ترىٰ ماذا ستفعل الأم؟ إنّ وقع المصيبة اكبر في قلوب الامهات.

فكتب الىٰ والده راجياً منه أن يحمل اليه زوجه.

وتمضي الأيام ويأتي والده مع الأم المفجوعة. وينتحب الزوجان بعد أن تذكرا طفلهما الذي اختطفه الموت علىٰ حين غرّة.

وكان لابد للزوج أن يسلّي عن خاطر زوجته، فراح يطوف بها مراقد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ينظران الىٰ مواكب العزاء الحسينية. فاذا جاء ذكر عبداللّٰه (طفل الحسين الرضيع) تجددت احزانهما، ويمتلئ قلباهما صبراً، فكل مصيبة تهون امام مصاب الحسين.

البشرى الميتة

كان محمد كاظم ينتظر خارج الحجرة وقد عصف به القلق، يصغي الىٰ آلام الامهات، يترقب بشوق بشرىٰ الوليد الجديد.

خرجت القابلة مطرقة الرأس، وتمتمت بحزن وأسف: لقد ولد ميتاً،

وهكذا سدّد القدر طعنة أخرىٰ.

لم تحتمل الام مصابها الجديد، فسقطت مريضة ولزمت فراش المرض، كان محمد كاظم يتابع دروسه، فاذا عاد الىٰ المنزل اشتغل بأعمال المنزل وتمريض زوجه.

وفي تلك الفترة ظهر تفوّقه الدراسي ومقامه العلمي، فحاز اعجاب اساتذته وزملائه.

فجأه اختطف الموت زوجه وشريك حياته، فظلّ وحيداً يجترّ آلام الغربة والفراق ورحيل الأحبّة.

الآخوند

كان محمد كاظم ينتهز الفرص للسفر الىٰ كربلاء حيث مرقد الامام الحسين عليه السلام سيد الشهداء، فحضر في إحدىٰ سفراته درس آية اللّه الآخوند الأردكاني (المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ)، وصادف أن استعرض الاردكاني آراء الشيخ الانصاري، وأورد اشكالاته عليها.

كان محمد كاظم يصغي بدقّة إلىٰ الآراء والردود، فتولّد في ذهنه قناعة كاملة بآراء الاردكاني.

ولدىٰ عودته الىٰ النجف يثير التلميذ نفس الاشكالات، ويعترف الانصاري ببعضها، فيما يرفض البعض الآخر.

ويطول البحث ويمتدّ بين التلميذ الذي لم يناهز الخامسة والعشرين من عمره وبين استاذه الطاعن في السن.

وقد انبهر التلاميذ بقدرة زميلهم في البحث والاستدلال، فنهض أحدهم ودعاه لاول مرة بالآخوند[1] ،فأصبح لقبه منذ ذلك الوقت.

سنوات العطاء

امضىٰ الآخوند ثلاثة عشرة سنة في بحوث الخارج (من عام ١٢٧٨ وحتىٰ عام ١٢٩١ هـ) لدىٰ اساتذة مشهورين.

درس عامين عند الانصاري، فانتقل ـ بعد وفاته ١٢٨١ هـ ـ الىٰ الشوشتري المتوفى سنة ١٢٨٠، ودرس عنده عامين ايضاً.

كما درس لمدّة اعوام لدىٰ آية اللّه الشيخ راضي النجف (المتوفىٰ سنة ١٢٩٠ هـ)، وآية اللّه السيد مهدي القزويني (المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ).

الاّ انه لازم الميرزا الشيرازي مدّة ثلاثة عشر عاماً. وقد لفت الآخوند الخراساني نظر استاذه من خلال اسئلته الدقيقة.. وكان من ابرز تلامذته علىٰ الاطلاق.

وعندما انتقل الشيرازي الىٰ سامراء لتعزيز المركز الديني والعلمي هناك، انتقل معظم تلاميذه ، وكان الآخوند ضمن الذين مكثوا في النجف للتدريس فيها، علىٰ أن بعض من كتبوا عن حياة الخراساني يذكر سفره الىٰ سامراء مع استاذه، وأن عودته الىٰ النجف كانت بنصيحة من استاذه الشيرازي.

---

(١) الاستاذ ـ المترجم.

علىٰ كرسي التدريس

توجه الآخوند ذات يوم الىٰ سامراء لزيارة الامامين الهادي والعسكري عليهما السلام . وعرّج من هناك علىٰ حلقة الميرزا الشيرازي استاذه القديم، وخلال الدرس أورد الخراساني إشكاله علىٰ آراء الميرزا، الذي أجابه. وكرر الخراساني اشكاله وعرضه بصورة أوضح، فردّه الميرزا مرّة أخرىٰ. ففضل الخراساني الصمت احتراماً لاستاذه.

وفي اليوم التالي وقبل أن يشرع الميرزا بإلقاء بحثه، قال: لقد كان الحق مع الآخوند.

صعد نجم الخراساني في تلك الفترة، واصبح في مصاف المجتهدين الكبار في النجف الاشرف. وقد مرّت عشرة أعوام علىٰ ارتقائه كرسي التدريس في الحوزة العلمية.

وقد ظل الخراساني يلقي دروسه مفترشاً الارض، ولم يرتق المنبر احتراماً لأستاذه الشيرازي بالرغم من تجاوزه الخمسين عاماً.

رحيل الشيرازي

في عام ١٣١٢ هـ. انتقل آية اللّٰه الشيرازي الىٰ الرفيق الاعلىٰ، وفجع برحيله العالم الشيعي والاسلامي، وقد هزّ رحيله تلميذه النابغ آية اللّٰه الخراساني فراح يبكيه بحرقة، وهو يستعيد عشرة أعوام قضاها في حلقات دروسه، وقد ظلّت ذكراه في قلبه مقترنة بالحزن والشوق والاجلال.

ذات مرة، وعندما سافر الخراساني الىٰ سامراء لزيارة العتبات المقدسة،

هاجت الذكريات في قلبه، فتوجه الىٰ منزل استاذه، فقبّل الباب ووضع جبينه عليه وراح يبكي بحرارة.

لم يكن العلمُ العلاقةَ الوحيدة التي ربطت بين الخراساني والشيرازي. لقد كان الشيرازي مثالاً عالياً في الاخلاق، كما تركت فتواه في قضية التنباكو، وقيادته لأحداثها المثيرة، وهزيمة السياسة البريطانية الأثر الكبير في روح الخراساني الذي ظلّ وفياً لاستاذه.. يذكره دائماً بالاحترام، حتىٰ انه كان يصطحب معه «ميرزا علي آقا» وهو ما يزال طالباً شاباً الىٰ مجالسه. وقد سئل عن علّة ذلك فأجاب: إنه نجل استاذي واحترامه واجب علي.

عطاشىٰ العلم

بعد رحيل الميرزا الشيرازي عاد تلامذته الىٰ النجف الاشرف، وانتظموا في دروس الآخوند الخراساني. وشيئاً فشيئاً ازدحمت حلقات الدرس بمئات الطلاّب من عطاشىٰ العلم والمعرفة. وكان الخراساني يتألق يوماً بعد آخر، وعاماً بعد آخر.

وذات يوم عدّوا طلبته بعد انتهاء أحد الدروس فكانو ١٥٤٠ طالباً.

لقد أنهىٰ الخراساني دورة كاملة للاصول في بحوث الخارج في ستة أعوام. بعدها شرع في تأليف كتابه الشهير «كفاية الاصول»، فأتمّه في ثلاث سنوات.

لقد كان الخراساني واحداً من أبرز أساتذه الحوزة العلمية علىٰ الاطلاق، وبلغ عدد طلابه اكثر من ثلاثة آلاف طالب، من بينهم مئات المجتهدين.

وكان معظم مراجع الشيعة تلامذة له.

بقي الخراساني يدرّس مدّة أربعين عاما، كجامعة كبرىٰ تخرّج التلاميذ والاساتذة. وكانت دروسه غاية في العمق والوضوح.. حتىٰ أن بعض تلامذته كانوا يعيدون دراستها علىٰ يديه مرّات ومرّات، فقد حضر آية اللّٰه الشيخ كاشف الغطاء الأصول ستة دورات.

الآفاق

اجتازت شهرة الآخوند الحدود العراقية، وراح الطلاب يشدّون رحالهم اليه من ايران والهند والباكستان ولبنان وبلدان اسلامية أخرىٰ، متحملين اعباء السفر ومشاقّ الطريق للانتظام في دروسه والانتهال من فيض علمه، وبلغت شهرته صداها في العاصمة العثمانية (اسطنبول) فتوجه «شيخ الاسلام» مع آخرين الىٰ النجف لحضور دروسه.

وقد سرت همهمة بين الطلاب في حينها، ونهض البعض احتراماً، والتفت الخراساني ـ وهو علىٰ المنبر ـ الىٰ ذلك، فجرّ الىٰ مائدة البحث بعض آراء أبي حنيفة[١] وراح يسوق الأدلة الواحد بعد الآخر، الامر الذي جعل «شيخ الاسلام» يشعر بالغبطة ويتساءل: كيف أمكن لأستاذ شيعي أن يتبنىٰ رأي ابي حنيفة، ولكن الخراساني لم يمهله حتىٰ راح يسرد اشكالاته حول ذلك

---

(١) تتبنىٰ الامبراطورية العثمانية المذهب الحنفي لأسباب سياسية لرأيه في مسألة الخلافة ـ المترجم.

مفنداً رأيه، ثم طرح رأي مجتهدي الشيعة، ثم عقب علىٰ ذلك قائلاً: لقد شرَّفنا عالم الامبراطورية العثمانية بحضوره، وها أنا انزل عن المنبر ليرتقيه لنستفيد من حديثه.

نزل الخراساني واستقبله شيخ الاسلام باجلال وحفاوة، ولكنه لم يصعد المنبر، وكان مبهوراً بشخصية الخراساني اذ كيف يتسنىٰ لعالم شيعي الاحاطة بالفكر السني والاشكال عليه، وظلّ اشكال الخراساني علىٰ رأي أبي حنيفة عالقاً في ذهنه وهو في طريق العودة الىٰ وطنه.

درس في الزيارة

يصلّي الآخوند صلاة الصبح جماعة، ثم ينطلق بعدها لزيارة المرقد الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام ويمكث هناك حتىٰ طلوع الشمس، بعدها يذهب الىٰ مسجد الهندي لالقاء دروسه. وفي المساء وبعد اداء صلاة المغرب والعشاء جماعة ايضاً في الصحن المقدس، وكان بعض تلامذته النابغين يرافقونه للاقتداء باخلاقه.

لم يترك الصلوات المستحبة والمندوبة بالرغم من تجاوزه الستين من العمر، وفي شهر رمضان المبارك تتجلّىٰ شخصيته الروحية وتتألق سموّاً ونوراً.

لقد قضىٰ شبابه في مدينة النجف ولم يغفل عن زيارة مرقد بطل الاسلام عليه السلام وكانت تمتمات الدعاء تنساب من فمه بهدوء وروحانية.

قال له أحد رفاقه: لو مكثت في الحرم مدّة أطول لكي يقتدي بك

الزائرون ويعرفون آداب الزيارة، فمسح الآخوند علىٰ لحيته وقال: أتريدني أن أشرك بالله في آخر عمري فأخلط عملي بالرياء.

شمس في منتصف الليل

يروي بعض جيرانه انه طالما سمع أنيناً يقطع نياط القلب.. ينبعث من منزل الخراساني في منتصف الليل.. حيث كل موجود قد أخلد الىٰ النوم.

اجل، لقد كانت شخصية الخراساني تترجم معنيين كبيرين :

لا قيمة للحياة بلا عبادة، ولا قيمة للعلم اذا لم يكن لله.

نعم هكذا كانت شخصية الخراساني مبنية علىٰ العلم والايمان، فنهضت عملاقة قويّة تبهر الاصدقاء وتنتزع إعجاب الاعداء

حياته العائلية

كان الآخوند ينادي أولاده بالرغم من تجاوزهم العشرين من العمر باسمائهم المجرّدة.. مهدي! أحمد!

امّا ولداه الصغيران فكان يناديهما باحترام: يا سيد حسين ويا سيد حسن لأنهما كانا يتيمي الأم، فكان يشملهما برعاية اكبر تعويضاً عن حنان الامومة. فاذا جلس الىٰ مائدة الغداء انتظرهما حتىٰ يحضرا.

كان إدامه اللبن، والخضار والخبز، وكان يولي اهمية بالغة للنظافة في بدنه وثيابه، يعيش في منزل واحد مع أولاده الثلاثة الذين تزوجوا، وقد أفرد لكل منهم حجرة واحدة، فشكىٰ أحدهم ضيق المكان ذات يوم، فقال والده:

اذا كان من المقرر توزيع بيوت المدينة علىٰ المحتاجين فلن يكون نصيبنا اكثر من هذا.

كان الآخوند أباً رحيماً يردّد دائماً: دعوا الصغار يلعبون كيف شاءوا وكان يعطف علىٰ احفاده ويحبّهم حباً عميقاً، وكان احفاده ـ لتعلّقهم به ـ ينتظرون عودته في الزقاق، وقد يصادف أن يستيقظ رضيع في البيت فيهب جدّه لاحتضانه ومناغاته حتىٰ يخلد الىٰ النوم مرّة أخرىٰ.

وكان ملاذاً

طرق أحدهم ـ وكان من تلامذته ـ عليه الباب في منتصف الليل، كان الآخوند مشغولاً بالمطالعة فخرج الىٰ الباب.

إنه طالبٌ كانت امرأته حاملاً وقد اضاع الطريق الىٰ منزل القابلة.

أسرَع الآخوند بعد أن أخذ الفانوس، ورافق تلميذه الىٰ منزل القابلة.

وبعد عودته أرسل الىٰ تلميذه مبلغاً من المال وقطعة من القماش وطعاماً.

كان الخراساني ملاذاً للمحتاجين وعوناً للبائسين، وحدث ذات مرّة ان جاء أحد الخطباء في كربلاء، وكان هذا الخطيب يهاجم الخراساني بشدة لوقوفه ودعمه لحركة «المشروطة»[1] في ايران.

وصادف أن تراكمت الديون علىٰ هذا الخطيب مما حدا به الىٰ بيع منزله

---

(١) الحركة الدستورية التي قادها علماء الدين وتعتبر من الاحداث الهامة في التأريخ الايراني ـ المترجم.

فعرضه للبيع، واشترط الذي أراد شراءه أن يحصل علىٰ اذن مـن الآخـوند فاضطر الخطيب الىٰ الامتثال بين يدي الخراساني، وعرض عليه أزمته.

فرحب الخراساني بضيفه، ثم ناوله مبلغاً كبيراً من المال يكـفي لسـداد ديونه وقال له: أنت عالم وأنا لا أرضىٰ أن تبيع منزلك لدينٍ عليك ولا تنس أن تخبرني كلما عرضت لك مشكلة.

وقد فوجئ الخطيب بأخلاق الخراساني، وأسِف علىٰ كـل كـلمة قـالها متحاملاً عليه، ثم اصبح من أخلص مريديه.

❊ ❊ ❊

كان معظم الشيعة في افغانستان يقلّدون الآخوند، وكانوا يرسلون اليـه الحقوق الشرعية من الخمس والزكاة، وكان بامكان الخراسـاني الاسـتفادة منها شخصياً، ولكنه كان ينفقها علىٰ البائسين والمحتاجين مفضلاً حياة غاية في البسـاطة.

جاءه ذات يوم أحدهم وكان يحمل مـعه مـبلغ ١٠٠٠ ليـرة مـن أهـل افغانستان، وعندما التقىٰ الخراساني قال له: لقد أُشـيع عـنكم بأنكـم مـن مؤيدي «المشروطة».

فردّ الخراساني: هذا صحيح

ـ ولكن أهل افغانستان اشترطوا تسليم الحقوق لمـجتهد لايـؤيد هـذه الحركة.

فقال الخراساني: اذن ابحث عن مجتهد آخر.

غير أن الافغاني حاول استمالته قائلاً: يكفي يـا سـماحة الآخـوند أن

تقولوا: إنني لا أؤيّد الحركة لكي اسلّمكم المال.

فغضب الخراساني وقال: أرجو أن تغادر المنزل غير مطرود.

من المدرسة الىٰ المحلة

الكثير يعيش حياته محدوداً بما قدره اللّٰه له من العمر فاذا اغمض عينيه طواه النسيان، ولكن هناك من يكسرون حاجز الموت فاذا هم احـياء بـعد مـوتهم خـالدون؛ مـنهم العـلماء والكـتاب، وبـناة المسـاجد والمـدارس والمستشفيات من الذين صفت نواياهم وكان عملهم خالصاً لله ـ وماكان لله ينمو. وكيف يموت من كانت اعماله «باقيات صالحات»؟

وهكذاكان بعض المحسنين من الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّٰه، فاذا اعمالهم نبات طيب ينهض بعد حين مدرسة تنشر العلم وتغرس الايمان.

في عام ١٣٢١ هـ. نهضت مدرسة في «الحويش» إحدىٰ محلاّت النجف الاشرف والمدرسة الكبرىٰ وتلاهما «مدرسة وسطى» عام ١٣٢٦ في محلة البرّاق ثم مدرسة صغرى، سنة ١٣٢٨ في نفس المحلّة.

وكان الخراساني لا يألو جهداً في انشاء المدارس في النجف وكـربلاء وبغداد، وقد نشطت حركة التبليغ في عهده حتىٰ شملت القرىٰ النائية فـي العراق، ومن خلال دعمه ظهرت مجلاّت عديدة: «الاخوة»، و«درّة النجف» و«العلم» و«النجف الاشرف» والتي اسـهمت فـي إثـراء الحـركة الفكـرية والأدبية في العراق.

الفصل الثاني

الـحرية

نحو الاكتفاء

ازدهرت الصناعات الداخلية في ايران في العهد الصفوي، حتىٰ أضحت تؤمِّن اكثر من ٩٠٪ من حاجة الشعب في البلاد. وكانت الاسواق تزخر بالحرير، والسجّاد، والآنية، وكانت آثار المنياتور[1] والطرق علىٰ الذهب والفضة والنحاس والقطيفة في طليعة الصادرات الايرانية.

ومع اعتلاء الملوك القاجار الحكم، تراجعت الصناعة الايرانية وشهدت ركوداً، حتىٰ إن حياكة السجاد ـ وهي أعرق الصناعات الايرانية ـ تراجعت أمام السجاد الأوربي، وضرب الكساد أطنابه في أهم مركز لها في اصفهان.

كان «ملك المتكلمين» ـ وهو من علماء الدين ـ في طليعة الذين انتبهوا للوضع المؤسف الذي تمرّ به ايران، ويعدّ رائداً في إعادة بناء الاقتصاد الوطني، فلقد سعىٰ في تشجيع التجار واصحاب رؤوس الأموال لإنعاش حركة الانتاج. وبعد نشاط دؤوب تأسست (عام ١٣١٦) الشركة الاسلامية في اصفهان كأول شركة مساهمة برأس مال يبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال ايراني وهو مبلغ ضخم في تلك الفترة.

---

(١) المنمنمات ـ المترجم.

وبدأت مصانع النسيج عملها، وراحت تدرّ ارباحاً طائلة في مدة وجيزة. وافتتحت الشركة فروعاً لها في مدن عديدة من ايران، وراجت البضائع الوطنية في البلاد.

وقد حثّ كل من «ملك المتملكين» (نور اللّه الاصفهاني)[1]، والسيد جمال الواعظ، الشعب علىٰ شراء الاسهم. وبلغت قيمة الاسهم المباعة ٩,٠٠٠,٠٠٠ ريال، وقد بلغ الحماس الديني لهذا المشروع أن ألّف جمال الواعظ كتاباً تحت عنوان «لباس التقوىٰ»، أشار فيه الىٰ بواعث انشاء الشركة الاسلامية والدعوة الىٰ دعمها شعبياً.

وقد أثنىٰ الآخوند وسبعة من كبار المجتهدين في النجف علىٰ الكتاب وأعلنوا دعمهم وتأييدهم للشركة، ودعا الآخوندُ المسلمين الىٰ خلع «لباس الذلّة» أي المنسوجات الاجنبية، وارتداء «لباس العزّة» المنسوجات الوطنية[2].

الحركة الدستورية في الميزان

تعدّ حركة «المشروطة» من اهم المنعطفات في التأريخ الايراني الحديث.

لقد اثارت الحركة الدستورية ـ في وقتها ـ جدلاً واسعاً، لما رافقها من

---

(١) أحد قادة الحركة الدستورية في ايران (المشروطة).

(٢) تاريخ انقلاب مشروطيت ايران ـ مهدي ملك زاده ج ١ ص ١٣٦ ـ ١٣٨ .

ملابسات وأحداث خطيرة، ليس علىٰ مستوىٰ الزعامات السياسية والدينية فحسب، بل علىٰ مستوىٰ الشارع الايراني.. حتىٰ أضحت «المستبدة»[1] و«المشروطة» قطبين متصارعين ومتناقضين تماماً.

والمشروطة ـ كغيرها من الحركات الدينية والوطنية ـ تعرّضت للتشويه والتحريف، ومحاولات الاجانب في جرّها بعيداً عن أهدافها الاصيلة.

علىٰ أن هناك فريقاً آخر فضّل السكوت إزاء الحوادث المريرة التي رافقت الصراع بين الفريقين، وقد فسّر موقفهم «ضد المشروطة».

ولعل أخطر التحولات في مسار الاحداث، هو الاختراق البريطاني للحركة الدستورية.. حتىٰ اصبحت طبخة من طبخات السفارة البريطانية، بحيث نُظّم اكبر اعتصام للمشروطة في السفارة البريطانية؛ هذا أولاً، وثانياً: قذف كل من عارض مسار المشروطة المشبوه بتهمة دعم الاستبداد، كما حصل ذلك مع آية الله الشهيد فضل الله النوري. ولعلّه الوحيد الذي انتبه الىٰ خطر الاختراق الانكليزي للحركة، ولعلّ افضل تقييم هو ما اشار اليه الامام الراحل في ذلك:

لقد نهض علماء الاسلام في وجه الاستبداد الأسود، وهي انطلاقة «المشروطة» وكانت حركتهم من أجل الحرّية للأمة، أرادوا جعل القوانين من الامة والىٰ الامة، من اجل استقلال البلاد، في سبيل الاسلام، أرادوا أن تكون القوانين اسلامية، ولقد انتزعوا ذلك

---

(١) دعاة الحكم الملكي المطلق ـ المترجم.

بدمائهم وباحتمال العذابات.

لقد كان العلماء في طليعة الحركة الدستورية وهم أصل «المشروطة» التي انطلقت اساساً من النجف ثم دوّت في ايران على أيدي العلماء.

غير أنهم لم يستمرّوا، ووقف الشعب علىٰ الحياد، وتخلّىٰ العلماء عنها، فاندسّ الاجانب عبر عملائهم؛ وفي طليعتهم: الانكليز الذين بدأوا بتصفية قادتها الحقيقيين باغتيالهم أو محاصرتهم اعلامياً من خلال تشويه سمعتهم. وبدأت هجمة محمومة شنّتها أقلام مأجورة لإقصاء علماء الدين عن السياسة وترك السياسة لاصحابها ـ كما يدّعون... وهم عملاء الشرق والغرب. فصنعوا ماصنعوا، فلم يبق من المشروطة الاّ اسمها، وظل الاستبداد ـ كما هو ـ استبداد مظلم.. ربما اشد ظلمة من الاستبداد اليوم[1].

ارهاصات الحركة الدستورية

«الحكومة الدستورية» حكومة تدير البلاد من خلال برلمان يشرّع القوانين، تكون الحكومة فيها سلطة تنفيذية فقط.

لقد اعتمدت دول كثيرة هذا اللون من الحكم، مثل انكلترا، بلجيكا، مصر، اليابان، الامبراطورية العثمانية وفرنسا ودول أخرى. وكان لابدّ لايران أن

---

(١) صحيفة نور ج ١ ص ٦٨، ج ١٥ ص ٢٠٢.

تتأثر بذلك، وهكذا بدأ جدل واسع حول المشروطة والمستبدة، وانقسم الشعب الىٰ فريقين، فريق ينشد «المشروطة» ووضع دستور شرعي يحكم البلاد.. تنجم عنه حكومة دستورية شرعية، فيما وقف المعارضون الىٰ جانب نظام الحكم القائم.

أدىٰ التطور الهائل في الطباعة، وتأسيس «دار الفنون» والمدارس العصرية، وحضور الأساتذة والمدرسين الاجانب ـ اضافة الىٰ ايفاد الطلاب الايرانيين في بعثات دراسية إلى الدول الغربية، وانتعاش حركة الترجمة عن اللغات الاجنبية، وانتشار الصحف ـ الىٰ تبلور وعي سياسي بما يجري علىٰ الساحة العالمية.

وقد هزّت حوادث (التنباكو) بقيادة الميرزا الشيرازي، وما نجم عنها من تطورات، العقلية الايرانية، وفتحت العيون علىٰ ممارسات «الشاه» وسياسته وترف المؤسسة الحاكمة والامتيازات المذلّة للاجانب في مقابل الفقر الذي يعصف باغلبية الشعب، وبالتالي تصاعد حدّة الهمس بين أفراد الشعب الذي بدأالاصغاءالىٰ استنكار علماء الدين الذين كانوا يشكّلون ضمير الامّة.

لقد سلّط «مظفر الدين شاه» أولاده علىٰ العباد والبلاد، فراحوا يعبثون بمقدرات الدولة، وأداروا المدن التي كانوا يحكمونها بطريقة بشعة ووحشية، كانوا يقتلون وينهبون، ويفرضون الضرائب ويسرقون جهد الفلاحين وعرقهم، كما وصل النفوذ الاجنبي في البلاد حداً لا يمكن احتماله.

يقول ناصرالدين شاه في مذكراته: إذا أردت السفر الىٰ شمال البلاد

اعترض سفير الانكليز، واذا نويت السفر الىٰ الجنوب اعترض السفير، لتذهب هذه البلاد الىٰ الجحيم مادام ملكها ممنوعاً من السفر الىٰ شمالها وجنوبها.

ان أهون ما يقال عن ملوك القاجار أنهم كانوا غير كفوئين للحكم، وقد باعوا البلاد الىٰ الاجنبي بثمن بخمس، وقد انشب الروس والانكليز مخالبهم من خلال الامتيازات الاقتصادية والعسكرية والسياسية، حتىٰ اصبحت الدولة لعبة في ايديهم.

وكان رؤساء الوزراء والقادة العسكريون، وحكام المدن يُنصبون ويُعزلون بأمر من السفارات الاجنبية، واصبح استقلال البلاد في الحضور الهائل للقوات الاجنبية أمراً لا معنىٰ له.

وهكذا حدث الانقسام الخطير بين الحكومة والشعب.

الجيش

في عام ١٢٩٥ هـ، اسس ناصر الدين شاه ـ بالاعتماد علىٰ الروس ـ أول قزاق‌خانه (تشكيلات القوزاق) وقد اشرف الضباط الروس علىٰ تدريب الجنود الايرانيين وارساء التشكيلات والوحدات العسكرية الحديثة، لتكون نواة للجيش الايراني، وسرعان ما امتدت فروعها في كل من تبريز، اصفهان، مشهد، بابل و رشت[١].

---

(١) تاريخ سياسى معاصر ايران ـ سيد جلال الدين مدني.

ولم يكتف الروس بالاشراف علىٰ التدريب العسكري بل كانوا المحور الاساس لمؤسسة الجيش حيث اخذوا علىٰ عاتقهم إدارة العديد من المدن والمحافظات، وكانوا يرتكبون الجرائم باسم الحكومة أو من وراء الكواليس وكان حضور الجنود الروس واضحاً، اضافة الىٰ إمساكهم بقيادة الجيش وتسلّطهم علىٰ جميع وحداته.

وبالرغم من مرور ثلاثين سنة علىٰ تأسيس الجيش الايراني فقد ظل النفوذ الروسي يتعاظم يوماً بعد آخر، وبلغ استهتارهم حدّاً نصبوا فيه الجلاّد ـ لياخوف ـ الذي قصف البرلمان بالمدافع ـ قائداً لقوّات الدرك في العاصمة طهران عشية احتلال الجيش لها.

نار تحت الرماد

في عام ١٣٢٢ هـ، وبناء علىٰ اقتراح تقدّم به السيد محمد الطباطبائي تشكّل «الاتحاد الوطني» السرّي ضمّ كلاً من ناظم الاسلام كرماني، مجد الاسلام كرماني، برهان الخلخالي، الشيخ محمد ذو الرياستين، الشيخ البهبهاني، والميرزا الاصفهاني، وقد اقسموا علىٰ الجهاد لتحقيق العدالة في البلاد.

كان الواعظ الاصفهاني ـ أحد ابرز قادة المشروطة ـ عضواً في «الاتحاد» الذي كان يعقد اجتماعه في كل شهرين مرّة، وكان الاعضاء علىٰ ارتباط دائم مع آية اللّه الطباطبائي وآية اللّه البهبهاني وهما من انشط علماء الدين في طهران.

وقد كان علماء طهران علىٰ ارتباط وثيق مع المراجع في النجف الاشرف ومعظمهم ايرانيون، وهكذا تبلور رأي واحد ينادي ويعمل علىٰ انقاذ ايـران من أزمتها الاقتصادية والسياسية.

ومن الجدير ذكـره أن كـلاً مـن البـهبهاني والطـباطبائي كـانا يـقودان اجتماعات الطلاّب في طهران[1].

اهتمام العلماء

في ٨ ربيع الاول ١٣٢٣ هـ، ابرق الآخوند الخراساني، والشيخ عبد اللّٰه المازندراني والميرزا حسين الطهراني رسالةً الىٰ آية اللّٰه البـهبهاني طـلبوا فيها منه ومن الشعب العملَ على طرد المسيو «نوج» من البلاد، وكان يشغل منصب رئيس الكمارك الايرانية.

أطلع البهبهاني العلماءَ والطلابَ والتجارَ، وقـام بـعض العـلماء بـفضح ممارسات «نوج»، وقد ردّ البهبهاني علىٰ رسالة الآخوند برسالة أطلعه فيها علىٰ آخر تطورات الوضع في ايران.

بعث الآخوند الخراساني والسيد كاظم الطباطبائي رسـالة أخـرىٰ فـي نفس الشهر، طلبوا فيها مـن البـهبهاني وأكّـدا فـيها عـلىٰ ضـرورة فـضح ممارسات بعض المسؤولين وإطلاع الحكومة علىٰ ذلك.

لقد رافق العلماءُ «المشروطةَ» منذ بدء انطلاقتها، واشترك فيها عشرات

---

(١) تاريخ روابط سياسى ايران و انگليس ج ٨ ص ٥٦ .

المجتهدين في طهران وسائر المدن الايرانية، وكانوا قادة لثوارها وملاذا لهم وكانوا يندِّدون ـ بشجاعة من فوق المنابر ـ بالظلم والاستبداد.

الانفجار

علىٰ اثر نفي الواعظ الاصفهاني مع اثنين من قادة «المشروطة» تحركت مدن طهران وشيراز و مشهد؛ و في ١٩ جمادى الاولىٰ ١٣٢٤ اعتُقل الشيخ محمد الواعظ، وكان من ابرز خطباء الثورة، فاندفع طلاّب مدرسة «الحاج ابو الحسن المعمار» في طهران وخلّصوه من أيدي الجنود بالقوّة، وقد سقط أحد الطلبة شهيداً في تلك الحادثة، فأغلق البازار أبوابه احتجاجاً، وتجمع الناس في احد المساجد، وانضم اليهم الطباطبائي، والبهبهاني، والشيخ فضل اللّٰه النوري[1].

وقد أبرق «عين الدولة» الىٰ العلماء بالعودة الىٰ منازلهم، وأنه سوف يصلح الامور بنفسه، وقد رفض العلماء طلبه قائلين: اننا ننشد العدالة، و(عين الدولة) هو العقبة في تأسيس ديوان العدالة ، وإن علىٰ (عين الدولة) أن يتخلىٰ عن منصبه كصدر اعظم للبلاد.

هاجم الجنود المسجدَ، وفتحوا النار علىٰ الشعب، وسقط اكثر من مئة من الشهداء، وعلىٰ اثر ذلك ـ وفي يوم ٢٣ جمادى الاولىٰ ١٣٢٤ ـ غادر الكثير من العلماء طهران الىٰ قم احتجاجاً علىٰ المذبحة، فيما التحقق اكثر من ثلاثة

---

(١) استشهد فيما بعد في ملابسات ماتزال حتىٰ اليوم تثير اسئلة عديدة ـ المترجم.

آلاف شخص بالمعتصمين داخل المسجد؛ في طليعتهم: آية اللّٰه فضل اللّٰه النوري، والنجفي الاصفهاني، والزنجاني.

اصدر مظفر الدين شاه أمراً بإقاله عين الدولة من منصبه، وفي ١٤ جمادى الثانية أعلن الشاه موافقته علىٰ «المشروطة»، وقد استمر العلماء علىٰ اعتصامهم، فاضطر الشاه الىٰ الاعلان عن الاسراع في تشكيل البرلمان (المجلس الوطني)[١].

النوّاب

مثّل طهران في الانتخابات ستّون نائباً، بينهم أمراء القاجار (٤ نواب) والعلماء والطلاّب (٤ نواب)، التجار (١٠)، والملاكون والفلاحون (١٠).

ومثّل آذربيجان ١٢ نائباً، خراسان، سيستان تربت، تبريز، قوچان، بجنورد و شاهرود ١٢ نائباً. گيلان و تالش ٦ نواب، مازندران ومدن الشمال ٦ نواب. قزوين وسمنان ٦ نواب. وعلىٰ هذا يكون مجموع النواب ١٦٢.

الدستور

عقد المجلس جلسة الدورة الاولىٰ، لوضع دستور للبلاد، ولكن معظم موادّه البالغة (٥١) مادّة كانت مقتبسة من قوانين الدول الاوربية، ماعدا بعض المواد البسيطة من اجل إضفاء الصبغة الاسلامية عليه.

---

(١) كان الشاه قد أعلن في وقت سابق: «مجلس الشورىٰ الاسلامي»!!

وقد صادق الشاه علىٰ الدستور، وكذا ولي العهد، ولم يلبث الشاه أن توفي، فتربع ابنه بعده علىٰ العرش.

ثم استكمل الدستور ليكون في (١٠٧) مادّة، نصت المادة الثانية منه علىٰ هيئة من المجتهدين يشرف علىٰ ما يُشرَّع من لوائح قانونية، وقد كان فضل اللّٰه النوري وراء هذا الاقتراح، وقد صادق المجلس علىٰ ذلك، غير أن الشاه رفض التوقيع، فانتفض أهالي تبريز، اصفهان، شيراز، رشت و كرمان، كما أبرق الآخوند وعلماء النجف الىٰ الشاه وطلبوا منه الاستجابة لمطالب الشعب، فاضطر الشاه ـ بعدها ـ الىٰ الرضوخ، واعلن موافقته في ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٥ هـ.

وعلىٰ هذا توجّب علىٰ مراجع التقليد تعريف ٢٠ مجتهداً الىٰ المجلس لينتخب النواب من بينهم خمسة اشخاص للاشراف علىٰ اللوائح القانونية، غير ان استشهاد البهبهاني أخّر عملية الانتخاب في الوقت المحدد.

قانون الخدمة الالزامية

سئل الآخوند عن رأيه في قانون الخدمة الالزامية (الجندية)، وقد تلي جوابه في الجلسة التي انعقدت في ربيع الأول ١٣٢٠ هـ. وكان الجواب ما يلي:

ان المحافظة علىٰ كيان الاسلام واجب علىٰ جميع المسلمين. وعلىٰ هذا فإن علىٰ الشعب، خاصة الشباب، ان يتعلموا مختلف الفنون العسكرية، وعلىٰ المجلس الاسراع في مناقشة ذلك.

وجاء في نداء الآخوند الخراساني، والميرزا حسين النوري والشيخ عبد اللّه المازندراني الذي تلي في نفس الجلسة:

ان علىٰ عموم الشعب ـ خاصة العشائر ومناطق الثغور والحدود ـ نبذ الفرقة جانباً، والتكاتف معاً، وتعلم فنون الحرب الحديثة، للدفاع عن التراب الايراني، ولذا ينبغي الاسراع في انتخاب النوّاب لينهضوا بواجباتهم في المجلس، وان مايصدر من قوانين عن المجلس الوطني هو بمثابة الاحكام الشرعية واجبة الطاعة.

تحالف الكفر

في اغسطس عام ١٩٠٧ م وقع الانكليز والروس اتفاقية لتقاسم مناطق النفوذ في كل من ايران وافغانستان والتبت،فاصبحت مناطق الشمال الايراني تحت النفوذ الروسي، ومناطق الجنوب تحت سيطرة الانكليز، فيما ظلّت المناطق المركزية منطقةً محايدة.

وقد اعترض المجلس الوطني ـ بشدة ـ على ذلك، كما رفض مشروعاً تقدمت به الحكومة حول طلب قروض من الدول الاجنبية.

وفي ٢٨ ذي الحجة ابرق الآخوند الخراساني الىٰ النوّاب وحثّهم علىٰ تطبيق القوانين الاسلامية وتسديد قروض البلاد ومعالجة مشكلة الفقر.

الاعتراض علىٰ المشروطة

اعتصم الشيخ فضل اللّٰه النوري في حرم عبد العظيم، وأعلن اعتراضه علىٰ «المشروطة» كما أعلن في بياناته اسباب اعتراضه، وجاء في بيان يوم الاثنين ١٨ جمادى الثانية ١٣٢٥ ما يوضح بواعث اعتراضه علىٰ المشروطة.

١ ـ مساس الصحف بكرامة النبي والائمة الاطهار وعلماء الاسلام، ودعوتها الىٰ افتتاح مراكز الفحشاء ومحلاّت بيع الخمور.

٢ ـ الاستهانة بمقدسات المسلمين من قِبل بعض زعماء «المشروطة».

٣ ـ ارتكاب المذابح، والاعتقالات، تحت سمع ونظر مؤيدي المشروطة.

٤ ـ جاء الدستور الايراني وكأنه نسخة من قوانين الدول الاوربية.

كما اقترح الشيخ النوري[1] إدراج رسالة الآخوند في جهاد الكفار ضمن القانون الداخلي للمجلس، وأكّد اعتراضه علىٰ ما تنشره الصحف ودور النشر من مقالات وكتب ضالّة تناهض الشريعة الاسلامية.

---

(١) نجح الانكليز عام ١٩٠٧ في اختراق المشروطة وافراغها من محتواها كـ «مشروعة» مثلما أراد لها الشيخ الشهيد، وقد حوصر النوري في منزله، وفي تلك الفترة عرضت السفارات الروسية والعثمانية والهولندية منحه حق اللجوء لانقاذ حياته المهددة بالخطر، وقد رفض الشيخ الشهيد كل ذلك، كما حاول السفير الروسي كسب الشهيد والاستفادة من موقعه ضد الانكليز فأرسل علم بلاده ليرفعه فوق منزله لحمايته، وقد حظيت هذه الخطوة بتأييد بعض انصار الشيخ، ولكنه رفض ذلك قائلاً: لقد قضيت سبعين سنة من حياتي تحت راية الاسلام ولا أريد أن أقضي بقية عمري تحت راية الكفر.. ردّوا العلم من حيث جاء ـ المترجم.

وصايا الخراساني

كان الآخوند دائم النصيحة للشاه، وكـان يـحثه عـلىٰ رعـاية الشـعب واحترام حقوقه المشروعة، وقد جاء في إحدىٰ وصايا للشاه:

١ ـ احترام الدين.

٢ ـ الدعاية للبضائع الايرانية كما يفعل الميكادو امبراطور اليابان الذي انقذ بلاده من أزمتها الاقتصادية.

٣ ـ السعي في نشر العلم والصناعة الحديثة.

٤ ـ الانتباه الىٰ تدخل وتغلغل النفوذ الاجنبي في البلاد.

كان الشاه يتظاهر بتأييد «المشروطة» ولكنه يعمل علىٰ تصفية قـادتها في الخفاء.

الدفاع عن المشروطة

أبرق دعـاة المشروطة في طهران وتبريز والمدن الاخـرىٰ الىٰ عـلماء النجف يطلعونهم علىٰ آخر تـطورات الوضـع واجـراءات الشـاه المـنافية للدستور.

وجاء في برقية البهبهاني والطباطبائي: أن الامة تشعر باليأس والخوف جراء المذابح التي ترتكب في كثير من المدن الايرانية.

وقد أعرب الخراساني عن قلقة العميق، وحثّ قـادة المشـروطة عـلىٰ اتخاذ كل الاجراءات الكفيلة بحفظ الاسلام.

كما حذّر المسؤولين السياسيين والعسكريين ورؤساء العشائر من مناهضة «المشروطة».

في ١٨ جمادى الاولىٰ ١٣٢٦ هـ. أبرق محمد علي شاه الىٰ النجف مبرراً جرائمه، ووصف عمليات القتل والسجن والنفي بحق الثوّار مجرّد اجراءات احترازيه لاستتباب الأمن، وأنه مايزال يؤيد «المشروطة» ويقف الىٰ جانبها.

وقد ندد الآخوند الخراساني ـ في معرض ردّه علىٰ برقية الشاه ـ باجراءاته، واستنكر مذابح آذربيجان والمدن الاخرىٰ، وحذره من مناهضة المشروطة.

الغضب المقدس

وعندما شعر الآخوند باليأس الكامل من مواقف الشاه وسياسته، بعث اليه برسالة شديدة اللهجة جاء فيها:

لقد عانىٰ المسلمون المصائب منذ تسلط «القاجار» علىٰ الحكم، لقد ضاعت بلدان شيعية وسقطت بأيدي الكفار بسبب عدم كفاءتهم.. وخسرت ايران القفقاز، وشيروانات، وبلاد التركمان[1] وبحر الخزر وهرات وافغانستان وبلوشستان والبحرين ومسقط ومعظم جزائر الخليج الفارسي وعراق العرب وتركستان.

(١) تركمنستان ـ المترجم.

لقد ضاع ثلثا ايران، اما الثلث الباقي فقد أصبح ـ تحت ذرائع مختلفة ـ تحت نفوذ الاجانب.

يقترضون المبالغ الضخمة ويبذرونها في بلدان الاجانب فتصبح البلاد رهناً لدىٰ الكفار ومرّة يمنحون الامتيازات المشؤومة ويسلمون ثروات الشيعة بأيدي المشركين، ومرّة يبيعون مقدرات ايران وثرواتها الطبيعية الىٰ الاعداء بثمن بخس، ويبعثرون مئة «كرور»[1] علىٰ فواحش الفرنجة، وهي أموال المسلمين التي انتهبت من ايديهم بالقوّة، وكان بالامكان اعمار البلاد وسد احتياجات العباد بها، وقد وصل تمزق البلد حداً جعل الاجانب يتقاسمونها علنا.

ايها الضال المنكر للدين، أبوك هو الذي اصدر «المشروطة» ولكنك عندما تربعت علىٰ عرش السلطنة، وضعت كل الوعود تحت قدميك.

ولقد سمعت بأنك ارسلت من قِبلك الىٰ النجف من يشتري لك الذمم والضمائر، غافلاً عن أن سعادة الشعب افضل من أموالك، انك تتظاهر باحترام الدين، ولكنك تعاديه وتخونه وتخون بلادك. سوف أعود الىٰ ايران وسأعلن الجهاد.

كما وجه الآخوند نداء الىٰ الشعب الايراني جاء فيه:

---

(١) الكرور = ٥٠٠,٠٠٠ (نصف مليون) ـ المترجم.

ان الدفاع عن أموال وأرواح المسلمين ومقارعة هذا السفاك الجبار من أهم الواجبات، وان دفع الضرائب لمأموري الدولة من أعظم المحرمات.

ودعا علماء النجف زعماء القبائل الايرانية الىٰ دعم «المشروطة» وحثوا المسلمين علىٰ محاربة استبداد محمد علي شاه.

وأرسل الآخوند مبعوثاً «الشيخ اسد اللّٰه الممقاني» الىٰ اسطنبول للتفاوض مع الاحرار الايرانيين هناك حول الجهاد ضد الاستبداد.

وقد اشيع وقتها أن تحريم دفع الضرائب لم يصدر عن الآخوند والمازندراني، فأبرقا الىٰ جمعية الاتحاد والترقي الايرانية في اسطنبول مؤكدين الفتوىٰ:

ان الاحكام الصادرة فيما يخص حرمة دفع الضرائب الديوانية لمأموري هذا السفاك ماتزال علىٰ اصالتها[١].

لغة القوة

في شعبان ١٣٢٦ هـ، ابرقت «جمعية الولاية» الىٰ علماء النجف تُطلعهم علىٰ خبر وقوع الانقلاب العسكري، وقد جاء في البرقية:

ان الشعب الايراني علىٰ استعداد كامل للتضحية وبذل الدماء خلف قيادة العلماء واستقرار «المجلس». الشاه يحشد مدفعيته حول طهران، و«القوزاق»

---

(١) ايران و جهان اسلام ـ عبد الهادي الحائري ـ ص ٥٧ .

في حالة استنفار لارتكاب المذابح بحق الشعب، وأن لا طريق سوىٰ خلع الشاه من عرش السلطنة.

واجاب قادة المشروطة:

اعملوا كل ما من شأنه حفظ الاسلام، ولقد أطلعنا حجج الاسلام في طهران بذلك.

في ٢٣ جمادى الاولىٰ ١٣٢٧ تعرض «مجلس الشورى الوطني» الىٰ قصف مدفعي شديد، واعلنت حكومة عسكرية في طهران، وتمّ ابعاد آية اللّٰه الطباطبائي، والبهبهاني، واستشهد الواعظ الاصفهاني وعدد من النوّاب، واعلن الشاه تعطيل المجلس لمدّة ثلاثة اشهر.

وتزامن ذلك مع انزال الانكليز قواتهم في السواحل الجنوبية لايران، واعتقال زعماء «المشروطة» في بوشهر، كما زجّ مؤيدو «المشروطة» في طهران وسائر المدن الاخرى في المعتقلات والسجون، واصدر رئيس الوزراء أوامره باعتقال المعارضين، وقمع التحركات في جميع انحاء البلاد.

حوادث تبريز

نشرت جريدة «الحبل المتين» في (رشت) علىٰ صفحاتها نصّ برقية الاخوند[1] قوّات المشروطة في كيلان[2] يهددون باحتلال العاصمة طهران.

---

(١) واقعات اتفاقيه در روزگار ج ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) اقليم في الشمال الايراني.

اقليم آذربيجان يفور نشاطاً من اجل اعادة الدستور، فيما يعلن «ستارخان» استعداده لتنفيذ فتاوىٰ علماء النجف الاشرف.

وجّه الآخوند الذي يتمتع بنفوذ واسع بين مسلمي باكو[1]، وعبد اللّه المازندراني في ٢٠ ذي القعدة ١٣٢٦ هـ، نداءً الىٰ مسلمي روسيا لنجدة اخوانهم في تبريز.

***

وجاء في جواب الآخوند علىٰ سؤال حول حوادث تبريز:

> من البديهي أن اهالي تبريز لايريدون سوى نيل حقوقهم الوطنية، وأن مساعدتهم من الضرورات الاسلامية، والذي يهاجمهم مهدور الدم.

ودعا «ستار خان»[2] المجاهدين الاذربيجانيين وأفراد الشعب كافة الىٰ قتال القوات الحكومية التي حاصرت تبريز.

القنصل الروسي يبعث بعلَم بلاده الىٰ ستار خان ليرفعه علىٰ منزله ليتمتع بحماية روسيا القيصرية، ويرفض «ستار خان» العرض الروسي قائلاً:

أنا اطمح الى إعادة سبعة بلدان الىٰ العلم الايراني، وأنت تعرض علي أن الجأ الىٰ علم روسيا.

---

(١) عاصمة جمهورية آذربيجان.

(٢) جرح اثناء قصف مدفعي بعد احتلال طهران وقرار مجلس الوزراء بنزع سلاح المجاهدين وتوفي إثر ذلك بعد اربع سنوات ـ المترجم.

وفي شعبان بدأت الاشتباكات بين المجاهدين وقوّات الحكومة.

مرّت اربعة شهور على حصار تبريز، والقحط يهدد المدينة، ومع هذا فقد يسمع العابر هذا الخوار:

ـ ماذا تفعل يا أخي؟!

ـ نأكل الـ«يونجه»[1]، فاذا نفد نأكل أوراق الشجر، فاذا انتهت نأكل لحاء الاشجار ونسخّم وجه الشاه.

ووجّه قادة المشروطة في النجف نداءً الىٰ العشائر الاذربيجانية لنجدة أهالي تبريز.

وفي ١٣ شعبان ١٣٢٦ هـ، بعث الآخوند رسالة الىٰ الشعب الايراني وأهالى آذربيجان جاء فيها:

الىٰ الاخوة الغيارى في آذربيجان وسائر بلاد ايران دامت بركاتهم.

حجة الاسلام الحاج التبريزي ومعه جمع من معتمدي الحوزة العلمية، في طريقه الىٰ ايران لاطفاء الفساد واصلاح الذات واتحاد الكلمة الاسلامية واحقاق حقوق المظلومين وحفظ نواميس واعراض وأموال المسلمين.

وإن احترام هؤلاء السادة واطاعة أوامرهم واجب علىٰ الجميع.

---

(١) البرسيم (علف الحيوانات).

اداء الواجب

في رمضان ١٣٢٦ بعث الايرانيون برقية الىٰ علماء النجف:

«... الشاه يستبيح تبرين، فما هو واجبنا الشرعي وواجب المسلمين تجاه المستبدين؟ افتونا صراحة».

وأجاب قادة المشروطة بما يلي:

عموم الايرانيين وسائر المسلمين

اليوم دفع هذا السفاك الظالم من اهم الواجبات.

حجة الاسلام التبريزي مع جماعة من العلماء العظام في الطريق. ونحن ايضاً في أثرهم، وليست دماؤنا بأفضل من دماء الشهداء.

فتاوىٰ الثورة

استفتىٰ الايرانيون المقيمون في «طرابوزان»[1] علماء النجف حول الاوضاع في ايران:

حجج الاسلام السادة الخراساني، المازندراني، الطهراني دامت بركاتهم.

حول ما جاء في برقية اسلامبول حول الاوضاع في ايران وخيانة الشاه استشعرنا وجوب الجهاد من قبلكم، نرجو الاشعار عن صحة ذلك الايرانيون المقيمون في «طرابوزان».

---

(١) بلدة تركية في الشمال من البحر الاسود.

وجاء جواب علماء النجف في شهر رمضان كالآتي:

الايرانيون في طرابوزان وساير المسلمين! نعم، الدفاع عن ارواح واعراض واموال المسلمين وجهاد مثل هذا الشاه السفاك الظالم من اهم الواجبات.

وهكذا اصدر الآخوند الخراساني حكماً بالجهاد، واستعدت عشائر الشيعة العراقية للالتحاق بقوّات الثورة. فتجمع آلاف المحاربين من العرب وأعلنوا تضامنهم مع إخوانهم، وعزمهم علىٰ الزحف باتجاه ايران لمحاربة الاستبداد.

وصلت قوّات «المشروطة» بغداد والتحق بها الكثير من اهالي كربلاء، الكاظمين، بغداد، والايرانيين المقيمين في العراق.

تزامنت تلك الاحداث مع سقوط طرابلس في قبضة الاحتلال الايطالي فأعلن الآخوند الخراساني والمازندراني وشيخ الشريعة الاصفهاني فتاوىٰ الجهاد لطرد المحتلين من طرابلس، وجاء في نص بياناتهم:

انتم ايها المؤمنون! ان الجهاد ضد الكافرين واجب شرعي، الجيش الايطالي يحتل طرابلس، يدمّر البلاد ويقتل الرجال والنساء والاطفال، وان واجب جميع المسلمين الصراع مع المحتلين، والجهاد بالارواح والأموال»[1].

---

(١) ايران و جهان اسلام ص ١٨٢ ـ ١٨٣ . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ـ علي الوردي.

فراق الاصدقاء

في عام ١٣٢٦، التحق الميرزا حسين الطهراني بالرفيق الأعلىٰ مودّعاً رفيقيه في الجهاد «الآخوند الخراساني» و«المازندراني»، وكان الثلاثة يوقعون ـ معاً ـ فتاوىٰ الجهاد، ويقودون حركة المشروطة بعزم لا يلين، وكان انسجامهم الفكري والعقيدي وتوحدهم في الجهاد والقيادة مثالاً يستحق التأمل ويدعو الىٰ الاعجاب.

الامتناع عن دفع الضرائب

دعا الآخوند الشعب الايراني الىٰ ادامة الجهاد حتىٰ عودة الدستور، فقد وجه الآخوند والمازندراني نداءً جاء فيه:

> ان دفع الضرائب الىٰ مأموري الدولة حرام حتىٰ يعقد مجلس الشورىٰ الوطني جلساته.

كما أبرق الآخوند الىٰ زعماء بعض الدول، وجاء في جانب من برقيته:

> لقد نال الشعب الايراني حقوقه في أخريات سلطنة مظفر الدين شاه، وانتقلت ايران من عهد الاستبداد الىٰ الدستور، ولقد وقع الشاه علىٰ الدستور ووقعه ايضاً ابنه محمد علي شاه، وأقسم ثلاثاً علىٰ احترامه، ولكنه كان يعمل خلاف ذلك، فقصف المجلس بالمدافع، وقتل عدداً من نوّاب الشعب وسجن آخرين، وعطّل الصحافة وأنزل ظلمه بالشعب.
>
> وعلىٰ هذا احيط جميع الدول بأن جميع الاتفاقيات التي يوقعها

لا اعتبار لها وأن الشعب الايراني لا يجد نفسه ملزماً بتسديد القروض الاجنبية في المستقبل، وان جميع الامتيازات التي يمنحها الشاه للدول الأخرى ملغاة.

سقوط طهران

زحف مجاهدو «رشت» صوب طهران، وكذا انطلق مجاهدو اصفهان مع عشائر بختيار، والعزم يحدو الجميع لتحرير طهران من قبضة الاستبداد والظلم.

عطّل أهالي مشهد أسواقهم واعتصموا في مرقد الامام الرضا عليه السلام واعلنوا اعتراضهم ضد الاستبداد، فيما فتحت قوات «القوزاق» النار علىٰ الشعب في مسجد «جوهر شاد».

وفي ٢٨ جمادى الثانية ١٣٢٧ هـ، سقطت طهران بأيدي المجاهدين بعد معارك ضارية، ولجأ الشاه مع اسرته الىٰ السفارة الروسية[١].

كان الآخوندومعه جموع غفيرة من الطلاب والعلماء العرب والايرانيين قد غادر النجف الىٰ كربلاء، وكان آية اللّٰه اليزدي ومعه مراجع الشيعة واساتذة الحوزة ضمن قوافل المجاهدين استعداداً للالتحاق باخوانهم في إيران وانقاذ البلاد من الاستبداد الداخلي ومن العدوان الخارجي، وفي تلك الفترة وصلت اخبار سقوط طهران بأيدي المجاهدين، فألغيت الاستعدادات، وأبرق الآخوند الىٰ قادة الفتح مهنّئاً.

---

(١) تاريخ تحولات سياسي و روابط خارجي ايران ج ٢ ص ١٨٥ ـ ١٨٨ .

أخبار مؤسفة

أطلع الميرزا محمد النائيني مستشار الآخوند مشاوره علىٰ أخبار مؤسفة حول الشيخ فضل اللّه النوري، وأن حياته في خطر. وقد أبرق الآخوند الىٰ طهران لانقاذ حياة الشيخ النوري، الاّ ان البرقية أخفيت واحيطت بالكتمان من قبل عملاء الانكليز، وفي غمرة الملابسات حوكم الشيخ النوري ونُفِّذ في حقه حكم الاعدام. وقد عدّت تلك الحادثة من كوارث حركة المشروطة[1] فلقد اقتيد شيخ في السبعين من عمره قضىٰ حياته في الجهاد الىٰ ميدان المدفعية، ليشنق وسط هتافات مجنونة تحيي الدستور وتندِّد بالاستبدادا

ولم يكتفِ عملاء الغرب باعدام الشيخ الشهيد بل راحوا يزوِّرون التاريخ لتشويه شخصيته، وهو الذي أراد «المشروطة» أن تكون «مشروعة» لا طبخة من طبخات السفارة البريطانية العريقة في التآمر.

جريدة الحبل المتين

نشرت جريدة الحبل المتين التي تصدر في رشت مقالاً هاجمت فيه علماء الدين وصبّت شتائمها علىٰ آية اللّه الزنجاني تمهيداً لاعتقاله ومحاكمته، وبالرغم من ان المقال كان يمجد الآخوند الخراساني فقد أبرق الاخير طالباً توقيف الجريدة ومنعها من الصدور، واعرب قطاع كبير من

---

(١) الحوار الآتي يعكس وقائع محاكمة الشيخ الشهيد: =

الشعب عن تضامنه مع الآخوند واعتراضه علىٰ الصحيفة المذكورة وتمّ تعطيلها.

= *شيخ ابراهيم زنجاني*: بسم الله قاصم الجبارين نبدأ المحكمة، بقراءة قرار التجريم، الذي يضم الاتهامات الموجهة الىٰ الشيخ فضل الله النوري بن ملا عباس كجوري.

عندما وافق المرحوم مظفر الدين شاه، وبعده محمد علي ميرزا، المخلوع على مطلب الشعب ووقّعا على الدستور والميثاق الاساسي، وكان لسماحتكم، وبعض العلماء المعروفين، دور كبير في إقرار هذا الامر، كنت تحضر اغلب جلسات مجلس الشورى لمدة ثمانية أشهر، حيث كانت تدون وتصحح مواد الدستور بعلمكم وبعلم الآخرين. فما الذين حصل وجعلك تشقّ عصا الأمة؟ وتزرع الفرقة بين الناس، وترفع لواء المعارضة؟ لقد جمعت حولك زمرة من الأشرار، وطرحت المادة التي هي أصل الفساد الكبير، والسبب الاساس في إراقة دم خمسين ألف إيراني بريء. إذا كانت المشروطة حلالا وواجباً، فلماذا عارضتها بهذه الشدة؟ ولماذا لم تصغِ للنصائح المتكررة التي وُجِّهت اليك بعد إعلانك معارضتك للمشروطة؟ كنت بنفسي حاضراً إحدىٰ الليالي، في منزل السيد ميرزا سيد محمد، وكان السيد عبدالله أيضاً موجوداً مع خمسة وعشرين من الوكلاء ذوي الشأن، عندما أقسمت الايمان المغلظة بالقرآن الكريم، بأنك دائماً تؤيّد المشروطة.

الشيخ فضل الله: ارجو ان تذكر تتمة الكلام الذي قلته يومئذٍ.

زنجاني: وبعد بضعة أيام نكثت يمينك ودعوت بدعوة الفساد، ورفعت لواء المعارضة، فعاد جماعة للاتصال بك، فكنت تقول: ان اعتراضك على تلك المادة المحددة من الدستور. ثم ذهبت إلىٰ مزار السيد عبد العظيم، وهناك أطلقت شتىٰ =

= الإتهامات الشفوية، والتحريرية، بحق النواب، ومارست ألوان الفساد، انك يا شيخ فضل اللّه النوري متهم بـ:

أولاً ـ إثارة الاضطرابات.

ثانياً ـ قتل بضعة اشخاص بأوامر شخصية منك.

ثالثاً ـ معارضة المشروطة التي دعا اليها السادة العلماء. ولهذه الأسباب فأنت امام العدالة محكوم بالإعدام.

أحد الحاضرين: قبل تنفيذ الحكم يمكنك أن تدافع عن نفسك.

شيخ *فضل اللّه*: بسم اللّه الرحمن الرحيم. قبل أن أدافع عن نفسي بيّنوا ما فعلتم بمحمد علي ميرزا؟ (الشاه المخلوع).

احدهم: هذا الأمر لا يتعلق بك.

شيخ *فضل اللّه*: لقد كان محمد علي ميرزا شاهاً ورأساً للاستبداد، لكنكم أعطيتموه الأمان ليخرج من ايران، وتغاضيتم عن كل جرائم القتل والنهب التي ارتكبها، وقررتم إرسال مئة الف تومان له شهرياً. أليس هذا ما كنا نقوله منذ البداية من أن المشروطة التي تصنع في السفارة البريطانية لن تكون نتيجتها غير هذا؟

احدهم: دافع عن نفسك؟

شيخ *فضل اللّه*: يصلنا الدور. وماذا فعلتم بعين الدولة (الصدر الاعظم)؟ بسبب مساعدته على الظلم والقتل اللذين لا حدَّ لهما؟ سمعت أنكم عفوتم عنه أيضاً، وأنتم تعلمون من الذي قتل أهالي تبريز، ومن الذي حمل أهالي قوجان على بيع بناتهم.

احدهم: لا علاقة لك بما فعلنا بالآخرين.

شيخ *فضل اللّه*: لا بأس ان تعطوه حقيبة وزارية أيضاً. فمثله جدير بها.

ثم ماذا فعلتم بلياخوف؟ لم أكن أنا الذي قصف المجلس بالمدافع، ولست الذي قتل أهالي طهران. ماذا فعلتم به؟ لقد سمعت أنه جاء الىٰ السردار أسعد وألقى أمامه سيفه على الارض علامة الاستسلام، وان السردار أسعد، قلده سيفه مرة ثانية. ماذا =

= تسمون ذلك؟

احدهم: لقد كان يؤدي واجبه العسكري.

شيخ فضل الله: اذن فالجرم الوحيد هو تأدية الواجب الإسلامي.

أمير بهادر: انت تحاكمنا بدل أن نحاكمك؟

شيخ فضل الله: وأما أنت يا أمير بهادر، فكيف ومتى أصبحت من طلاب المشروطة؟ أنت الذي كنت بالأمس وزير حرب المستبدين، أصبحت اليوم قاضي قضاة المشروطة؟ الحمد لله أن عشنا وشاهدنا تقلُّبَ الأيام. لقد علمت أنك هنا، فأحضرت معي هذه الوثيقة، هل تتذكر يا سيد أمير بهادر عندما بعث السيد بهبهاني، والسيد طباطبائي، برقيات الى المدن؟ دعني أقرأ لك نص البرقية. (السادة العلماء الاعلام، وحصون الاسلام، جمعية الولاية وسائر الجمعيات إن إبعاد عدد من حاشية البلاط، كأمير بهادر الذي كان ضالعاً بالفساد، وإفساد العلاقة بين الشعب والشاه... .

زنجاني: ليس لك أن تتدخل في شؤون المشروطة.

شيخ فضل الله: أريد أن اقول إن المشروطة التي تزدهر تحت مظلة الأجنبي، يحتفل بها مع المستبدين. إذا كنتم تعتبرونني من طلاب الاستبداد ـ وانتم لا تعتبرونني كذلك، وتعلم ضمائركم ذلك ـ فلماذا على الاقل لم تفعلوا بي مثل ما فعلتم بمحمد علي ميرزا، وعين الدولة ولياخوف. وأنتم أنفسكم تعلمون: أن ذلك أسلم لي، وأنه كان قد طلب مني أن ألجأ إلىٰ السفارة الروسية أو العثمانية، لأضمن سلامتي، وتعلمون أيضاً: أنني رفضت!! وقد قلتم أيضاً إنني كنت من طلاب المشروطة ثم انفصلت عنها وأنتم تعلمون سبب انفصالي. إن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً كان يحارب بني أمية مع العباسيين في أول الأمر ولكنه عندما رأى انحرافهم تركهم. ثم قُتِلَ على يد العباسيين في النهاية.

امير بهادر: تقارن نفسك بالإمام الصادق أيها الشيخ؟

شيخ فضل الله: كلا، إنني أقارنكم بالعباسيين.

محاولة اغتيال

أُلقي القبض علىٰ آية الله الزنجاني لمحاكمته رغم سنّه الكبير (٩٢ عاما) ولكن الآخوند بعث ببرقية شديدة اللهجة، فأُلغيت المحاكمة، وتمّ ابعاده الىٰ العراق، وقد عاده الآخوند في محل اقامته، وقال له مسلّياً: «لقد أردنا للزبيب أن يكون خلاً فلِم اصبح خمراً؟!»[1].

وفي التاسع من رجب سنة ١٣٢٨ اغتيل آية الله السيد عبد الله البهبهاني بأوامر شخصية من سيد حسن تقي زاده[2]، فيما لزم آيـة اللّـه الطـباطبائي منزله بعد أن تلقىٰ تهديدات تحذره من نفس مصير رفيقه في الجهاد.

شكر وتقدير

في عام ١٣٢٧ هـ. وجّه مجلس الشورىٰ الوطني، وبعد بدء دروته الثانية لوح شكر وتقدير الىٰ الآخوند الخراساني والمازندراني والطهرانـي تـثميناً لجهودهم وجهادهم، وقد خُط اللوح بماء الذهب وبيد «عماد الكتاب» اشهر خطاطي العصر القاجاري.

وفي معرض شكره لمجاهدي المشروطة أكّد الآخوند علىٰ ضرورة طرد الروس من ايران، كما أكد في برقية له الى «ناصر المـلك» نـائب السـلطنة

---

(١) اشارة الىٰ النتائج التي نجمت عن انـتصار المشـروطة والنـص بـالفارسية «ما كشمش را پختيم تا سركه شود چرا شراب شد؟!» ـ المترجم.

(٢) أحد نواب مجلس الشورىٰ الوطني، كان يدعو الىٰ تغريب ايران ـ المترجم.

ومسؤولي البلاد علىٰ تجهيز القوّات المسلحة وغلق دور الدعارة والفساد، وإعلان العفو العام وإطلاق سراح السجناء السياسيين، كما طلب من الشعب الايراني استئناف دفع الضرائب ملغياً حكمه الذي صدر في وقت سابق.

الواجب العسكري

وجه الآخوند نداء عاماً دعا فيه الشعب ـ خاصة الشباب ـ الىٰ تعلّم مختلف الفنون العسكرية:

ان الحفاظ علىٰ الاسلام والدفاع عن البلدان الاسلامية واجب علىٰ عامة الشعب.. وان علىٰ كل فرد من افراد المسلمين أن يتعلم حسب قدرته واستعداده مبادئ تلك الفنون، وعلىٰ الشبان المسلمين الالتزام بالخدمة العسكرية وتعلّم الفنون الجديدة للحرب في هذا الزمان وبلا أدنىٰ تساهل، وعلىٰ مجلس الشورىٰ الوطني الاسراع في اصدار قانون للخدمة العسكرية.

انشاء المدارس الحديثة والبنوك

استفتي الآخوندالخراساني، والشيخ عبد الله المازندراني، والميرزا حسين النوري حول رأيهم في انشاء المدارس الحديثة والبنوك، فاجابوا: جميع ذلك جائز، شرط الانتباه الىٰ عدم اعتماد الربا (في البنوك) والىٰ ضرورة تدريس العقائد الاسلامية في تلك المدارس، وان تأسيس البنك والمدارس الجديدة ليس جائزاً فحسب بل من اهم الواجبات.

توحدوا

كان الآخوند الخراساني يؤكد علىٰ اتحاد الامة، وأن تعبر عن إرادتها من خلال ممثليها في مجلس الشورىٰ الوطني، اضافة الىٰ تأكيده الدائم علىٰ تعلّم مختلف الفنون العسكرية والحربية الحديثة، ويعتبر كل ذلك واجباً اسلامياً وتكليفاً شرعياً ففي نداء له الىٰ الشعب الايراني جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الى عموم أفراد الامة، خاصّة العشائر وحراس الحدود والثغور في بلاد ايران الاسلامية...

ان بلداننا الاسلامية اليوم تعيش حالة من الضعف والعجز لم يكن لها نظير في العصور الماضية، وأن العقل والشرع يوجبان عليكم ـ انتم زعماء العشائر وحرّاس الحدود ـ الاستفادة من هذه الفرصة وتحيلوا الفرقة والاختلاف الىٰ اتفاق ووحدة الكلمة الاسلامية، وان تعليم وتعلّم قوانين الحرب الحديثة فريضة في ذمتكم، وان لا تتماهلوا في إرسال ممثليكم الىٰ مجلس الشورىٰ الوطني[1].

طرد تقي زاده

يعد سيد حسن تقي زادة من ابرز العملاء الفكريين للغرب في الفترة الحساسة من تاريخ ايران. كان يدعو الىٰ تغريب ايران، واستلهام الثقافة

---

(١) تاريخ تحولات سياسي و روابط خارجي ايران ج ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

الغربية في كل نواحي الحياة، بل حتىٰ في الاخلاق. وقد انتبه الآخوند الىٰ خطورة وجوده في مجلس الشورىٰ الوطـني الذي يـعبّر عـن إرادة الامـة وتطلعاتها، لذا وجه خطاباً الىٰ المجلس جاء فيه:

بالنظر لثبوت التضاد الواضح في سلوك سيد حسن تقي زادة مع اسلامية البلاد وقوانين الشريعة المقدسة، فإن من اللازم قانوناً وشرعاً طرده مـن عـضوية المـجلس، وان مـنعه مـن دخول المجلس والتدخل في شؤون البلاد واجب علىٰ جـميع العلماء والمسؤولين وأفراد الشعب وإن مـن اللازم نـفيه مـن ايران فوراً.

وعلىٰ اثر صدور الحكم الشرعي وانتشاره، قام مجلس الشورىٰ الوطني بطرده من طهران.

وقد اشيع وقتها بأن فتوىٰ الآخوند تتضمن اعتبار تقي زادة مرتداً عـن الاسلام، فأبرق الآخوند في شوال ١٣٢٨ الىٰ آية اللّٰه الميرزا (ابو الحسـن الانكجي) وهو من مراجع التقليد في اقليم آذربـيجان مـبيناً أن الحكـم لا يتضمن تكفيره بل ينحصر ببيان عدم كفاءته السياسية فقط.

الاقليات الدينية

في العاشر من صفر ١٣٢٧ هـ، اجاب الآخوند والمازندراني عن سـؤال يتعلّق بأوضاع الاقليات الدينية، وقد جاء الجواب ليـبيّن مـدىٰ التسـامح الديني الذي ينطوي عليه الاسلام.

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

ان ايذاء واحتقار الطائفة الزرادشتية وسائر أهل الذمة الذين هم في حماية الاسلام حرام، وواجب علىٰ جميع المسلمين رعاية وصايا خاتم النبيين ﷺ في حسن معاملتهم وتألف قلوبهم والحفاظ على ارواحهم واعراضهم واموالهم علىٰ احسن وجه، وأن لا يتخلفوا عن ذلك قيد شعرة.

الهدف من المشروطة

اثنىٰ كل من الآخوند والشيخ عبد اللّٰه المازندراني علىٰ كتاب (تنبيه الامة وتنزيه الملّة) وهو من تأليف آية اللّٰه محمد حسن النائيني واعلنا تأييدهما له، ويعدّ الكتاب أول مؤلَّف يبحث في الحكومة الاسلامية وانسجام فكرة الدستور مع الشريعة الاسلامية.

وفي العشرين من المحرم ١٣٢٧ هـ، صدر بيان عن آية اللّٰه الشيخ اسماعيل المحلاّتي حول «المشروطة» جاء فيه:

ان الهدف من المشروطة هو الحدّ من صلاحيات الملك، وكذلك سيادة القانون الذي سنّه نواب الشعب في المجلس واعتباره الملاك في عمل الحكومة.

وان مجلس الشورىٰ الوطني انما أُسس ليحدد مضار ومصالح البلاد عبر مجموعة من وكلاء الأمة، ويعد المجلس مصداقاً من مصاديق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

الذي هو من صميم الشريعة الاسلامية، كما أن الحفاظ علىٰ بيضة الاسلام من هجوم الكفار هو الآخر من صميم الشريعة.
ليس الهدف من المشروطة، هو اطلاق الحريات والانفلات، وارتكاب المحرّمات بذريعة الحرّية. المراد من المشروطة، ضمان حرّية الشعب من نير الاستبداد الملكي، انا نريد تطبيق احكام الاسلام علىٰ عامة الشعب من الملك الىٰ الشحاذ وان أفراد الشعب سواسية أمام القانون.
وليس المفهوم من المساواة أن تتساوىٰ أحكام المسافر مع غير المسافر في مسائل الصلاة والصوم، كما ليس المفهوم من المساواة تساوي العالم مع الجاهل، والفاسق مع العادل.

وقد أعرب الآخوند والمازندراني عنتضامنهمامع محتوىٰ البيان.

نداء الىٰ الشعب

وجه الآخوند الخراساني والمازندراني نداء الىٰ الشعب الايراني بعد تصاعد حدّة الشكوىٰ من تجاوزات تتمّ باسم الدستور والحرّية جاء فيه:
وصلت رسائل من مدن عديدة في ايران تشتكي من اعمال غير لائقة يقوم بها أفراد يدعون «المشروطة» مبرّرين اعمالهم باسم الدستور، لذا رأينا من اللازم أن نقول عن «المشروطة» مايلي:

الدستور في كل بلد معناه تحديد سلطة الملك حتىٰ لا يحدث ما يخالف قانون ودين البلاد. الاسلام هو دين ايران الرسمي، والمذهب: الشيعي الاثنا

عشري، واذن فإن الدستور والحرية في ايران في التزام الحكومة والشعب بقوانين الاسلام، وتنفيذ العدالة وحماية مصالح المسلمين.

وقد جاء في الفصل الثاني من الدستور مادّة تفيد بأن على المجلس ان لا يصادق علىٰ اللوائح التي تتعارض مع الشريعة الاسلامية، وعلىٰ الشعب أن يراعي في انتخاب ممثليه من بين الافراد الصالحين من الذين لا يخونون دينهم ووطنهم[1].

انذار

وجه الآخوند انذاراً الىٰ نائب السلطنة (ناصر الملك) حذر فيه من تجاوزات المشروطة وخروجها عن مسار الاسلام. كما أشار له في رسائل سابقة الىٰ ما يجري في ايران:

لقد نشرت بعض الصحف مقالات حول افتتاح نوادي القمار ومحلاّت بيع الخمور، ومن اللازم التصدي الىٰ ذلك، وتطبيق احكام الاسلام بحق المخالفين، وفي حقل التربية والتعليم يجب منع كل الموضوعات التي تخالف الاسلام، وعلىٰ

---

(١) كان احد بنود الدستور الايراني الذي دوّن بعد «الثورة الدستورية» ينصّ علىٰ تشكيل لجنة تتكون من خمسة من علماء الدين المجتهدين واجبهم الاشراف علىٰ اللوائح التي تشرّع في البرلمان ويتمتعون بصلاحة المصادقة أو عرضها علىٰ اللوائح القانونية ـ المترجم.

المسـؤولين عـن التـربية والتـعليم إرسال مـعلمين مـلتزمين يعلّمون التلاميذ أصول وفروع الدين.

كما نقل اليه قلق العلماء عما يجري في أروقه المجلس في دورته الثانية وتجاوزات بعض دعاة «المشروطة» وانحلال بعض الشخصيات السياسية، وانفلات الصحافة وإهانة مقدسات المسلمين.

الصراع مع الروس

ارسلت الحكومة القيصرية قوات عسكرية لدعم موقف محمد علي شاه ضد حركة «المشروطة»، وكان بقاؤها هاجساً اقلق الغيارىٰ علىٰ اسـتقلال البلاد من الاطماع الاجنبية.

وقد وجه الآخوند نداء الىٰ مجلس الشورىٰ الوطني حول هذه المسألة جاء في جانب منه:

لقد مضت عشرة اشهر علىٰ انعقاد الدورة الثانية من المجلس، وما نزال ننتظر بشرىٰ طرد الروس من ايران ولكن لم نشهد اجراءً في هذا الصدد.

لقد تلطخت «المشروطة» واستقلال ايران، بل ديننا وروحـنا الوطـنية والانسانية بالعار، وعلىٰ هذا ينبغي علىٰ الشعب الامتناع عن شراء البضائع الروسية كخطوة في طريق الجهاد والصراع ضد الروس.

ارسلت الحكومة الروسية سفيرها في بغداد الىٰ النجف للقاء الآخـوند واقناعه بإلغاء فتواه في جهاد الروس، وقد رفض الآخوند استقبال السـفير الروسي.

ثم وافق الآخوند علىٰ تسلّم طلب تحريري يتضمن رغبة بلاده، وفي ردّه علىٰ السفير أبرق الآخوند وطلب من حكومة روسيا سحب جنودها من الاراضي الايرانية، وتجاهلت روسيا طلب الآخوند وحذرت عبر قنصلها في بغداد بأنها ستردّ بالمثل.

وفي معرض ردّه اجاب الآخوند الخراساني:

ان الامة الايرانية تنشد الاستقلال واحترام الحقوق الدولية. إن الحكومة الروسية تتجاهل هذه الحقوق، ولا توجد مبررات للتدخل الروسي في ايران، وان بقاء جنود روسيا في ايران يضرّ بأمن وتقدم البلاد[1].

تهديدات

في أواخر عام ١٣٢٨ هـ. صادق مجلس الشورىٰ الوطني علىٰ استقدام مستشار امريكي للشؤون المالية. وعلىٰ أثر ذلك تم استخدام مورغان شوستر مسؤولاً لخزانة البلاد مدّة ثلاثة اعوام.

عززت روسيا قواتها العسكرية في ايران ووجهت انذاراً الىٰ الحكومة الايرانية باحتلال طهران اذا لم تطرد الاخيرةُ المستشارَ الامريكي. وفي مداولات مجلس الشورىٰ رفض كل من الشهيد حسن مدرّس، والشهيد محمد خياباني ـ وهما عضوان ـ تهديدات روسيا، واثر ذلك اعلن

---

(١) موت في الضوء (مرگی در نور) ص ٢٤١ ـ ٢٤٥ .

المجلس ذلك رسمياً.

وقد فوجئت روسيا بقرار الرفض ووجهت انـذاراً بـاحتلال العـاصمة، وامهلت الحكومة مدّة ٤٨ ساعة لاعلان طردها مورغان شوستر واستخدام مستشار روسي أو انكليزي بدلاً عن شوستر.

في ١٣ ذي الحجة ١٣٢٩ هـ. اطلع المجلسُ الآخوندَ الخراساني عـلىٰ آخر تطورات الوضع، وبعد انتهاء مدّة الانذار اجـتاحت القـوّات الروسـية مناطق واسعة من الشمال الايراني وواصلت تقدمها نحو مدينة قزوين.

باركت الحكومة الانكليزية اجراءات روسيا، واعلنت ـ بدورها ـ عزمها علىٰ احتلال الجنوب الايراني بحجة حـماية الطـرق التـجارية، وامـهلت الحكومة الايرانية مدّة ثلاثة اشهر.

وجه الآخوند رسالة الىٰ الزعامات الدينية في تبريز ودعاهم الىٰ الثورة ضد الروس والامتناع عن شراء البضائع الروسية، كما دعاهم الىٰ تعلّم فنون الحرب، والقيام بواجبهم الديني.

قرار الجهاد

اعلن الآخوند تعطيله لدروسه، فتوقفت الدراسة فـي الحـوزة العـلمية احتراماً له، وانعقدت جلسات واجتماعات مطولة في منزله، وافتىٰ الآخوند بوجوب الجهاد ضد الروس المعتدين، وتعطلت الاعمال في كثير من البلدان الاسلامية في وقت واحد، كالقفقاز والهند تضامناً مع مطالب ايران بانسحاب القوّات الروسية، وارسلت البرقيات الىٰ جميع السفارات الدولية في بـغداد

تطلب من بلدانها الضغط علىٰ روسيا لسحب جنودها من ايران.

وبعث الآخوند رسالة الىٰ مجلس الشورىٰ الايراني وأحاطه علماً بعزمه علىٰ المجيء الىٰ ايران مع المتطوعين للجهاد من الطلاب والعلماء والايرانيين وشيعة العراق.

غروب الشمس

بلغت الاستعدادات للرحيل الىٰ ايران مداها، وكان الحماس يلهب ضمائر المجاهدين للدفاع عن البلدان الاسلامية، وكان من المقرر أن يتحرك المجاهدون ليلة الاربعاء ٢١ ذي الحجة ١٣٢٩ هـ. من النجف الىٰ مسجد السهلة للدعاء والتضرع الىٰ الله بطلب النصر لجيش الاسلام، ثم الانطلاق الىٰ كربلاء ومنها الىٰ الكاظمية والتجمع هناك قبل التحرك صوب ايران.

في عصر يوم الثلاثاء كان الازدحام في منزل الآخوند الخراساني قد بلغ ذروته، وكان الميرزا مهدي (النجل الاكبر للآخوند) قد استكمل استعدادات السفر. في الساعة السادسة عصراً افصح الآخوند أمام الحاضرين عن رغبته في اداء صلاة الصبح في حرم امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ومن ثم التحرك، ودعهم وظل مستيقظاً اكثر الليل، وكان مشغولاً باداء الامانات الىٰ اهلها، وعين مسؤولين عن تنفيذ بعض الاعمال الموكلة في المستقبل، وكانت وصاياه تشف عن رحيل لا عودة من ورائه، وفي منتصف الليل وكعادته نهض لاداء الصلاة.

لم يترك الآخوند صلاة الليل أبداً، وقبيل صلاة الفجر شعر الآخوند بألم في قلبه، وأدىٰ صلاة الصبح بصعوبة ثم... وحضر الطبيب ولكن وصل متأخراً..

وهكذا ودّعت الشمس سماءها في منتصف الليل.

وشهدت مدينة النجف غروب ذلك الكوكب العظيم الذي اضاء الدنيا ردحاً من الزمن[1].

المنائر الحزينة

سار الموكب الحزين يحمل الجثمان الطاهر الىٰ مثواه الاخير، السماء تمطر، والغيوم تبكي تسح دموعاً ثقالا، وبدت المنائر غارقة في حزن مرير، لقد صمت الرجل الذي كان يصنع التاريخ، والشمس التي اشرقت في مشهد في ظلال الرضاعليه السلام واضاءت الدنيا تغرب في مدينة النجف مدينة بطل الاسلام الخالد علي بن ابي طالبعليه السلام .

والرجل الذي عزم الرحيل الىٰ ايران مع آلاف المجاهدين لطرد الغزاة المعتدين يرحل وحده.. يغادر الدنيا في سفر الآخرة، ليترك قلوباً تتفجر لوعة، وعيوناً تفيض دمعاً، ومدناً غارقة في الحزن.

---

(١) يعتقد الكثيرون ان موته كان اغتيالاً بالسم علىٰ يد جواسيس روس وانكليز.

تلامذته وآثاره

لم يتوفر عدد كبير من التلامذة والطلاب لأحد مثلما توفر للآخوند الخراساني كماً وكيفاً، فقد تخرج علىٰ يديه العشرات من المجتهدين والمراجع[1] من مختلف البلدان والشعوب الاسلامية، واصبح بعضهم من ابرز اساتذه الحوزة العلمية في إيران والعراق، وتتراوح التقديرات بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ طالب. واما آثاره فيمكن الاشارة الىٰ:

١ ـ حاشية مختصرة علىٰ الرسائل وهو أولىٰ مؤلفاته

٢ ـ حاشية مفصّلة علىٰ الرسائل تحت عنوان «درر الفوائد»

٣ ـ حاشية علىٰ المكاسب

٤ ـ الفوائد: كتاب في الفقه

٥ ـ حاشية علىٰ الاسفار

٦ ـ حاشية علىٰ منظومة السبزواري

٧ ـ رسالة في المشتق

٨ ـ رسالة في الوقف

٩ ـ رسالة في الرضاع

١٠ ـ رسالة في الدماء

١١ ـ رسالة في الدماء الثلاثة

١٢ ـ رسالة في الاجارة

---

(١) أحصىٰ المؤلف منهم اكثر من ثلاثمئة شخصية.

١٣ ـ رسالة في الطلاق

١٤ ـ رسالة في العدالة

١٥ ـ رسالة في الرهن، طبعت جميع رسائله في كتاب واحد.

١٦ ـ القضاء والشهادات: وتضم تحقيقات الآخوند التي جمعت من قبل نجله ميرزا محمد المعروف بـ«آقا زاده»

١٧ ـ روح الحياة في تلخيص نجاة العباد: كتاب في الفقه طبع في بغداد سنة ١٣٢٧هـ.

١٨ ـ تكملة التبصرة: طبع في طهران سنة ١٣٢٨هـ.

١٩ ـ ذخيرة العباد في يوم المعاد: رسالته العملية باللغة الفارسية طبعت لأول مرّة في بومباي ثم اعيد طبعها في طهران سنة ١٣٢٩هـ.

٢٠ ـ اللمعات النيرة في شرح تكملة التبصرة

٢١ ـ كفاية الاصول: وهو اشهر ما ألفه الآخوند علىٰ الاطلاق، ومايزال الكتاب في طليعة كتب المنهج الدراسي المعتمد في الحوزات العلمية.